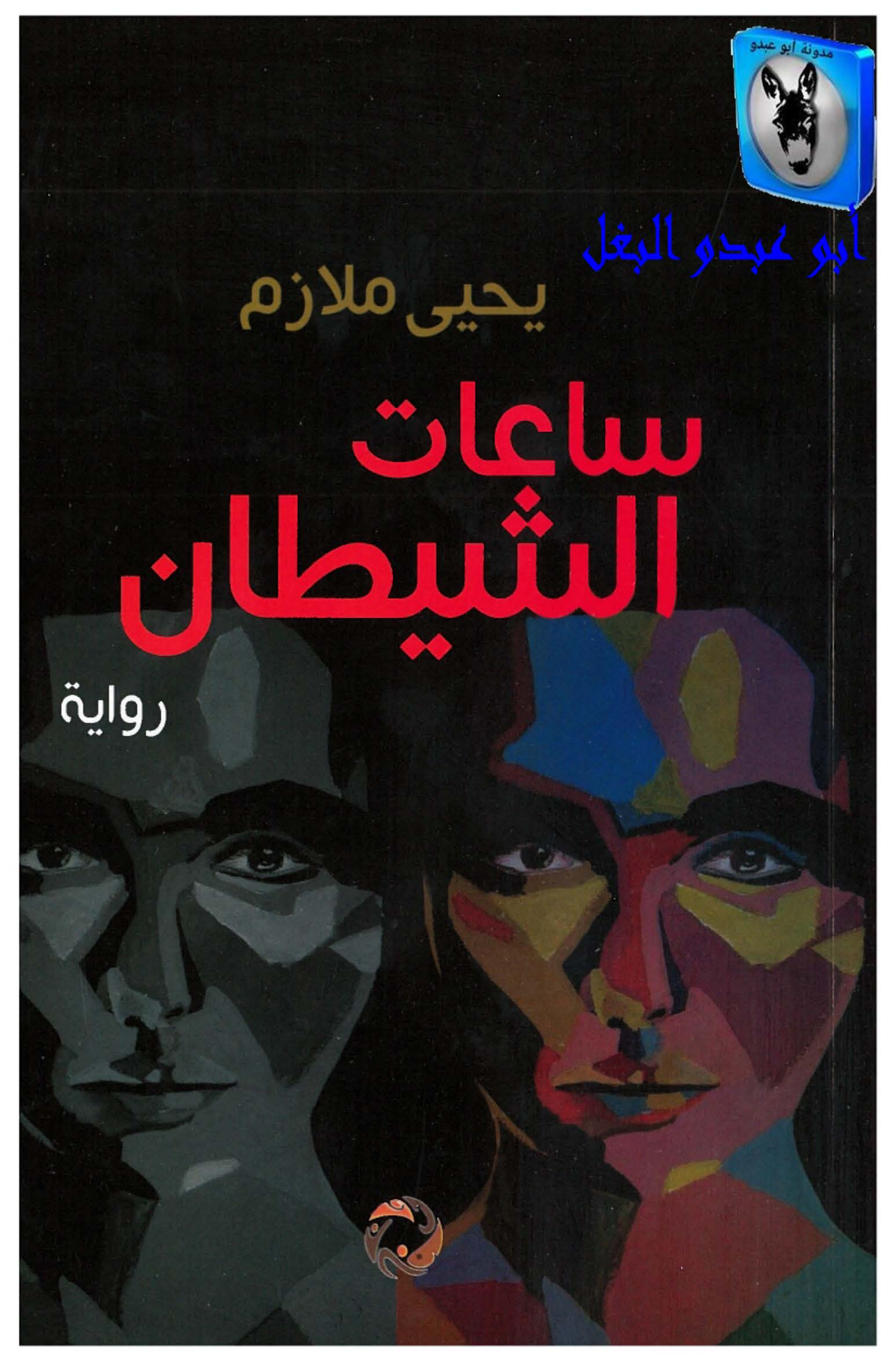


مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
يحيى ملازم
ساعات الشيطان
رواية

5384

ساعات الشيطان

ساعات الشيطان «رواية»

تأليف: يحيى ملازم

عدد الصفحات: (**108**)

القياس: (**14.5 * 22**)



الناشر : دار الرصيف
للإبداعات الجديدة

الطبعة الأولى: 2017 / عدد النسخ 1000

يحيى عدنان ملازم

ساعات الشيطان

رواية



الأيام الأولى

كان سرواله كبيراً جداً حيث أن شخصاً ضعيفاً آخر قد يتسع معه في نفس السروال، وأما السترة التي كانت تسمى سفاري فنفس الشيء لم يكن الأمر مقصوداً لجعل لباسه بهذا الحجم، ولكن بكل بساطة إن المحل الذي يوافق على إعطاء أبيه بالدين لم يكن يملك إلا هذا الطقم السفاري. وقد كان هذا الطقم هديته من أبيه، لأنه حصل على الشهادة الثانوية، أنهى إجراءات التسجيل بالجامعة واستلم مفتاح غرفة في المدينة الجامعية وبدء عصر جديد عصر بعيد عن الأهل، بعيد عن الأوامر والمتطلبات بعيداً عن الحسيب والرقيب.

جلس في غرفته ليرتاح يا إلهي إنها غرفة رائعة سريران خزانتان طاولتان ومكتبتان، يا الله ما أروعها وما أرتبها، لم يكن معه لهذه اللحظة أي شريك كان وحيداً وقال بداخله يا ترى من هو شريكي بالسكن ومن أي مدينة هو لا يهم سأتأقلم مع أي شخص حتى وإن كان شيطاناً وضحك.

وضع حقيبته بالغرفة ونزل إلى السوق مستخدماً باص النقل الداخلي (المدينة الجامعية) يجب أن يشتري عدة شاي وقهوة وبعض المستلزمات الضرورية للعيشة الجديدة. تأمل في نفسه وهو في الباص

لم يقل لأحد (أنا ذاهب) وضحك أكثر لا ينتظرني أحد نعم أنا لوحدي أنا لوحدي يا الله ما أجمل الحرية.

توقف الباص عند باب المدينة الجامعية المخصصة للطالبات وصعدن للباص كثيرات ليست واحدة ولا اثنتين يا إلهي كثيرات.... كثيرات... بنات بعمر الورد كان ينظر وهو فاتح فمه فالكنوز بالقرب منه لا فاصل لا حاجز فقط موقف باص واحد. نهض عن كرسيه وأجلس واحدة منهن، وظل واقفاً لنهاية الخط (المنشية).

تسوق بعض الحاجيات الضرورية للعيش الجديد وبما يتناسب مع ما في جيبه وتمشى في مركز مدينة حلب، وعاد أدراجه إلى المنشية (موقف باصات النقل الداخلي) وبدأ ينتظر باص مكتوب عليه المدينة الجامعية، كان الموقف كالحشر لكنه حشر نسائي فالنسبة الغالبة كانت من الفتيات العائدات إلى السكن الجامعي قبل الإقفال، كان يقتل الوقت بسيجارته التي لم تنطفئ (كانت السيجارة تجعله رجلاً) ويراقب بعينين من تحت زجاج النظارة الطبية الموجودات وأحياناً كان يستغني عن النظارة بالنظر من فوقها مع إمالة بسيطة للأسفل كانت هذه الطريقة تريحه بعض الشيء؛ لأنه كان يهرب بها من أعين شديدة القوى كانت ترقبه وهو يحملق بشكل مركز.

جاء الباص، جاء الفرج قالها بنفسه وبدء رحلة الصعود، الناس يتدافعون، يتجاذبون، يتلاصقون، ليس مهماً قال بنفسه (ضع رأسك مع الرؤوس ونادي لقاطع الرؤوس) الله يستر رأسنا وضحك لوحده وهو بين الجمع الذي تشكل من ثلثين حريمي والثلث الآخر رجالي، وصل إلى صهوة الباص وأمسك بعمود ووضع كيس مشترياته بين قدميه كان كل ما حوله بنات بدأ يتعرق، الجو حار والباص مزدحم كان ودون أن ينتبه للموضوع قد ترك مسافة بينه وبين العمود الذي يمسك به فجاءت

شابة مليئة البدن ترتدي جنزاً ضيقاً ودخلت بينه وبين العمود، يا إلهي أصبحت بين ذراعيه، نعم إنها بين يديه لكنها غاضبة فقد أدارت له ظهرها،: لِمَ أنت غاضبة يا بعد عيني أنا ما أغضبتك بشيء) قالها بصوت خافت و ضحك لوحده كعادته هذا اليوم.

تحرك الباص يئنّ تحت حمولته وتحت الحر، فتم الالتصاق كمركبة فضائية التصقت بالأماكن المخصصة للالتحام، كان التحاماً خارجياً سطحياً لكنه ضاع فيه، التعرق زاد، التوتر زاد، تسارعت دقات القلب، احمرت الوجنتين، كان يسرق علناً، لكنها لم تنبت ببنت شفة، زادت اللحمة، وزاد التعرق، وأحست صاحبة الجنز بشعار ذكورته: (أنا واثق أنها تحس بي) قالها وهو يرتجف لكنها لم تحرك ساكناً وكأن شيئاً لم يكن وبراءة الأطفال في عينيها، يتأرجح الباص ويتأرجح معه الملتحمان يميناً وبساراً ويزيد التوتر ويزداد التعرق يجف الحلق، وتجف الحبال الصوتية، ما عدت أحتمل ما عدت أحتمل، كان يصرخ بداخله، كان يستغيث لقد شارف على النهاية، ثم زفر زفرة عظيمة تحرك شعر الفتاة من قوتها، وشعر بسخونة تمشي على فخذه ببطء وأحس بسكون عظيم لم يعد يسمع ضوضاء أو ضجيج كان كل شيء حوله هادئاً جميلاً رائعاً. توقف الباص الموقف قبل الأخير وهو شارد غائب عن الوعي، مشت الفتاة نظرت إليه كان مطرقاً رأسه بالأرض، لكنه من تحت النظارة رآها تنظر إليه أحب أن يلحقها لكن الباص انطلق.

نزل من الباص في الموقف التالي والأخير، لم يمش بل جلس على الرصيف مذهولاً، أشعل سيجارة ونفخ زفيراً كأنه تنين أسطوري: ماذا حصل هل أنا في حلم أم في علم، قرص نفسه لا أنت في علم وسروالك الداخلي رطب ولزج جداً، يعني لم يكن حلماً؟ أبداً حقيقة وحقيقة واضحة وجلية تحسس نفسك تشعر بالنتائج المادية، ريقه جاف وزادت

السيجارة جفاف حلقه، ففتح كيس المشتريات ولعق بعض السكر أفاق نوعاً ما وعاد من جديد يتساءل: إن لم تكن أحست بي فهذا محال المحال، يعني أنها أحست بي أحست بذكورتي أحست برجولتي، حسناً لِمَ لم تبتعد؟ لِمَ لم تصرخ وتستنجد، لِمَ قبلت بكل ما صار؟ لِمَ نظرت إليَّ قبل أن تنزل؟ هل احتقرتني؟ أم أنها تمنت لو كنا أنا وإياها بصحراء أو بغابة أو بأي مكان بعيداً عن أعين الناس، لقد كانت زيتاً وكنت ناراً لا ... لا ... كانت هي النار وكنت أنا الزيت لا يهم كنا زيتاً وناراً صحيح لِمَ نظرت إليَّ تلك النظرة؟ هل أعجبت برجولتي، هل أحبتني من أول نظرة؟ لكنها لم ترني حتى تحبني، لا لقد رأتني عندما حشرت نفسها بيني وبين العمود، نعم رأتني فقررت أن تضع نفسها بين عمودين - وعاد ليضحك لوحده -.

استجمع قواه ومشى، أسرع بالمشي: تذكرت أنا على جنابة الآن، يجب أن أستحم، يجب أن أسقط الجنابة، هذه أول مرة بحياتي أكون فيها جنباً وأنا في الطريق وعاد أدراجه يتذكر قصة حدثت معه قبل عامين عندما كان في الثاني الثانوي فقد أعطاه أحد رفاقه صورة لفتاة عارية تماماً، كان الجو بارداً جداً، كانت السماء تعبر عن غضبها بكل الأنواع، من البرد إلى المطر إلى البرد القارص كانت أيامها الأربعينية كما يسمونها وحينها كانت الامتحانات الفصلية الأولى، وفي الليل أخرج الصورة ويدأ يتأملها ويتحسسها بيده ويفركها على رمز رجولته فهي عارية والعارية تكون مستعدة للجماع فمارس الجنس مع الصورة وبعد أن انتهى، تذكر أن غداً امتحان للتربية الإسلامية، نظر في مرآة صغيرة، بصق على نفسه ماذا أفعل فالاستحمام عادة من الخميس إلى الخميس ولم يكن لديهم حتى حمام، بل كانوا يسخنون الماء ببرميل كبير ويستحمون في الغرفة والمدفأة مشتعلة.

البرد قارص والصقيع بدأ يلقي القبض على الماء السائل، فجأة قام من فراشه تسلل من غرفته إلى فناء الدار تعرى بسرعة وفتح ماء الصنبور من أعلى رأسه إلى أخمص قدمه، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ثم عاد أدراجه إلى الغرفة الدافئة وأسنانه يصطك بعضها ببعض، ويداه ترتجفان وشفتاه تحولت إلى أزرق نيلي، اندس بفراشه وكان البرد قد تملك كل جسده وحاول أن ينام ولكن أحس بأمه تضع له الكمادات فحرارته مرتفعة جداً، فحمله والده على كتفه بعد منتصف الليل أو ربما عند الفجر إلى مستوصف القرية فحولوه إلى مشفى المدينة، فقد أصيب بالحمى التيفية وقضى بالمشفى خمسة عشر يوماً، وقد ستره الله أن المدرسة وافقت على امتحانه بعد عطلة نصف السنة التي قضى ثمانين بالمئة منها بالمشفى.

بالكاد أوشك من الانتهاء من هذه الذكرى الأليمة كان قد وصل إلى الغرفة، وضع كيس مشترياته وأخذ بشكيراً وذهب إلى الحمامات فالحمامات مشتركة.

عاد للغرفة لم يقل له أحد: (نعيماً) أو (حمام الهناء) ولم يقبّل يد أمه وأبيه بعد الاستحمام كعادتهم في المنزل، أحس بالوحدة الشديدة وبالفراغ، استلقى على ظهره:

الوحدة ليست جيدة، نعم شكلي سأتألم كثيراً من الوحدة، من أول ليلة بدأت أشكو، معي كل الحق فأمي كانت تغطيني عدة مرات بالليل يا الله كم أنت حنونة يا أمي، كم أنت طيبة يا أمي اللهم مسيها بالخير هي وأبي، يا الله رغم صغر بيتنا لكن كنا سعداء والدي لا يتناول طعام الغداء حتى يحضر الجميع بالواقع نحن عائلة نبيلة؟ وضحك لوحده كالعادة. نوى النوم فيومه كان طويل ومتعب ومدهش، أغمض عينيه رأى

بنطال الجنز وما احتواه من كنز فريد، حاول أن يغير الموجة لكن أبداً، الجنز وما يحتويه احتلوا كل مساحة عقله، وعاد وتذكر كل ما حدث من جديد بأدق التفاصيل، ولم يحس على نفسه إلا بعد أن انتهى من ممارسة العادة السرية على ذكرى الحادثة.

نهض من سريره نظر إلى المرآة وبصق على نفسه وقال وهو يضحك:

شكلك ستبصق على نفسك كثيراً هذه الأيام. تناول الفوطة وتوجه للحمام.

استيقظ صالح في اليوم الثاني كانت الساعة تقترب من منتصف النهار (كان يوم جمعة) تململ في سريره تثاءب عدة مرات نظر للساعة يا إلهي صلاة الجمعة، صلاة الجمعة، تحرك حركات متخبطة لن ألحق بها ولم أر مسجداً قريباً من هنا، لا مشكلة سأعتبر نفسي في عام 1980 سأرجع زماني خمس سنوات إلى الوراء لم نكن نصلي الجمعة في المسجد، نعم كان والدي يمنعنا من الصلاة في المسجد خوفاً علينا، نعم كان يخاف أن يشتبه بنا ونؤخذ ولا يعرف إلا رب العالمين أين نحن، نعم معي حق لن أذهب، أبي لن يعاقبني ثانياً أنا مسافر سأصلي هنا بالغرفة.

نهض، لبس ثيابه وقرر الذهاب إلى بيت أخته المتزوجة في نفس المدينة ونزل من الغرفة حتى دون أن يصلي.

كانت الشوارع شبه فارغة، استقل السرفيس الدائري الشمالي، وصل بيت أخته فوجد الغداء جاهزاً، اختصر السلام وتربع بعد أن أزاح اثنتين من بنات أخته عن السفرة وهو يقول بصوت عال:

يا الله كم أنا جائع!

أحضرت أخته الشاي وقدمت له كأساً بعد الغداء (تقليد شائع) وبدأت تسأله عن السكن الجديد وحلفته ألف يمين بأن لا يتردد بالمجيء بأي وقت وطلبت منه أن يحضر ثيابه للغسيل كل أسبوع وأغلظت عليه الأيمان في حال اشتهى أي نوع من أنواع المأكولات أن يتصل بها وستقوم بأعداده من أجله. كانت تربطه علاقة جد قوية بأخته مع العلم بأنها أكبر منه بسبع سنوات فقبل زواجها كان حليفها بالمنزل ضد تسلط أخيه الأكبر، وكم تحمل الضرب وهو يدافع عنها أمام جبروت وقوة أخيه الكبير الذي يكبره بخمس سنوات ويصغر أخته بسنتين. كان يدافع عنها دون أي تفكير، دون أن يسأل نفسه لِمَ أخوه يقوم بضربها، لم يكن يعي لأي سبب من الأسباب، الضرب الذي تتعرض له، ولكنه كان يستميت في الدفاع عنها، وكثيراً ما قال له أخوه: والله يا حمار لو أنك تفهم لكنت ضربتها معي. كانت كلمات أخيه محفورة في رأسه وكثيراً ما عادت هذه العبارة إلى مقدمة تفكيره وهو ينظر إلى أخته التي أصبحت أما لأربعة أطفال.

لعبة الشطرنج كانت قاسماً مشتركاً بينه وبين زوج أخته، فبعد أن قرر النوم عند بيت أخته، كان يلعب الشطرنج مع زوج أخته، الأولاد نائمون، أحضرت أخته القهوة، كان منصباً على الرقعة والهدوء مخيم على غرفة الجلوس، نظر من تحت النظارة، رأى زوج أخته يرسل قبلة بالهواء لأخته نظر إلى أخته فرأى أخته بكامل زينتها – أحمر شفاه كحل مسكرة... إلخ، وقد ردت لزوجها القبلة بحركة مثيرة، رمى أحجار الشطرنج وقال لصهره: أريد أن أنام!

رد عليه: أي والله تعمل معروف لأنه لدينا عمل، وتعالت ضحكة الزوجين، و أضاف زوج أخته: سنقوم بتفصيل سترة جديدة لك، وكلما نمت عندنا أكملنا لك التفصيل حتى نكسوك بشكل كامل، وتعالت

ضحكة الزوجين من جديد. أجاب والغيظ يأكله - لكنه تغلب عليه وكتمه -:

الله يعطيكم الصحة والعافية وتوجه إلى غرفة الأولاد لينام معهم، من أين يأتي النوم، لِمَ لبسته الغيرة؟ لما اغتاظ من منظر أخته وهي قد جهزت نفسها لزوجها؟ ماذا أصابه لا يدري!:

- لو رأت أمي هذا المنظر أكيد ستسر وستفرح - تقلب كثيراً محاولاً النوم لا جدوى، قرأ المعوذات، لا جدوى خاصة أنه سمع مياهاً تسكب في الحمام وكأنها ماء نار تسكب على جلده.

وصل إلى الكلية بعد ليلة مضنية، كلية الزراعة، سيصبح مهندساً زراعياً، هذا ما أهله معدله بالثانوية العامة لقبوله في الجامعة، كانت الكلية مليئة شباب وصبايا، سأل عن البرنامج وعن مواقع القاعات يجب أن أتعرف على بعض الشباب، بالأحرى إذا كنا صبايا أحسن وأحسن وعاد للمنولوج الداخلي.

الدوام الفعلي لم يبدأ بعد بشكل منتظم، دخل القاعة ووضع دفتراً وحيداً كان يحمله ليحجز مكانه ووقف أمام القاعة يدخن منتظراً حضور الدكتور. جاء شاب وسأله عن ولاعة فأجابه صالح الولعة بسيجارة فأجاب على حسابك علبة سجائر كاملة، وحاول أن يعطيه علبة كان يضعها في جوربه فضحك الاثنان معاً، وأقسم صالح على أن لا يأخذها وتبادلا التعارف، رائد زميل جديد وقريب من مقر إقامة أهل صالح فأهله يقطنون الطبقة (مدينة صغيرة على ضفاف الفرات تبعد مئة وخمسين كيلو متراً عن حلب) ورائد الزميل الجديد من الرقة تبعد عن حلب 200 كم على نفس الخط، قالها صالح:

نحن أقارب

فأجاب رائد: يحصل لنا الشرف. جاء المحاضر دخلا القاعة،

جلسا على نفس المقعد وأحسا بأنهما يعرفان بعضهما منذ سنين، الفرات والجو والمعاناة، لكن صالح أحس بأن رائداً مرتاح مادياً فلباسه كان أنيقاً جداً وقد وضع عطراً مميزاً حتى حذائه كان يبدو مهرباً وليس صناعة وطنية.

انتهت المحاضرة دعا رائد صالحاً إلى مقصف الكلية وأحضر له فطائر جبن وشاياً حاول صالح أن يدفع إلا أن رائداً أقسم على أن يدفع، جلسا يستكملان التعارف، وكلما مرت صبية فحصاها بنفس النظرة من فوق إلى أسفل القدم قال رائد: أين تسكن؟

أجاب صالح: حصلت على غرفة بالمدينة الجامعية / الوحدة العاشرة / الغرفة 603 وأنت؟

لقد استأجر لي أخي شقة مفروشة قرب محطة بغداد /غرفة وصالة لكنها جميلة وقريبة من العزيزية، وكل مساء أتمشى هناك فأنا في حلب منذ خمسة عشر يوماً وكنت كثيراً أتردد على حلب فأنا أعرف المدينة بشكل جيد ويا الله ما أحلى العزيزية!

استغرب صالح من مدح صديقه الجديد للعزيزية وما هي العزيزية لكنه استحيا أن يسأله عن الموجود في العزيزية، واستطرد قائلاً:

أنا أعرف مركز انطلاق الباصات إلى الطبقة، وبيت أختي والجامعة والمدينة الجامعية تعرفت عليهم من جديد، أعرف الجهات ولكني لم أحفظ أسماء الأحياء والشوارع بشكل جيد.

فرد رائد: إن شاء الله سوف أعرفك على حلب، لا تحمل هماً.

أنهى الدوام المختصر وذهب إلى غرفته في المدينة الجامعية، دخل الغرفة، لا أغراض جديدة، لم يأت الشريك، استلقى على سريره أفكار كثيرة تسكنه وغط بنوم عميق فليلة البارحة لم ينم.

استيقظ في المساء، خطرت له فكرة جهنمية يجب أن يبحث عن صاحبة الجينز لابد أن يجدها لقد تقبّلته على علاته، نزل من الغرفة وذهب إلى القسم المخصص لسكن الطالبات، جلس قريباً من الباب يرقب الخارجات و الداخلات، كان يرى في كل واحدة صاحبة الجنز، وكلما رأى فتاة ترتدي جينزاً قال: ها هي، وكان يركز على الخلفية وقال بنفسه: أنا أعرفها من خلفيتها أكثر من وجهها آه من هذا الجنز.

مرت ساعتان لا شيء فخطر خاطر برأسه: لِمَ لا تذهب إلى العزيزية وترى ما فيها! نعم الفكرة.

ركب التكسي وتوجه إلى العزيزية، نزل من السيارة وبدأ يتلفت حوله، هذه العزيزية ما فيها؟ لِمَ تأوه صاحبي الرقاوي عندما تحدث عنها، مقاه ومطاعم ولكن نعم يا إلهي ما هذا؟ إنها شبه عارية نعم، وتلك وتلك نعم الآن عرفت الفتيات هنا كاسيات عاريات، إنها من علامات يوم القيامة الله يسترنا، بدأ يمشي وهو يشبع نظره بالكاسيات العاريات، لفت نظره شيء أحبه وترك عنده ذكرى جميلة واليوم خرج يبحث عنه، أسرع الخُطا نعم نفس الجينز الذي أبحث عنه وعن صاحبته وربما هي تنتظرني وتبحث عني فلابد أنها أعجبت برجولتي، تجاوز الجينز والتفت إلى صاحبته، فأدار وجهه وزاد بالسرعة قائلاً بنفسه:

يا الله كم الفرق كبير بين المؤخرة والوجه، أعوذ بالله من غضب الله، لكن لِمَ تحسست ألا تتمنى أن تحصل على هذه البشمة...؟ أي والله يا ليتَ ولكن إن أحببت فحب أميرا! ولكن تخيل أنها معك بغرفة ألا تفتك بها، والله أمزقها إرباً، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة.

أكمل مشواره بالعزيزية ذهاباً وإياباً يجلي عينه بخلق الله أحس بالجوع تناول سندويشات فلافل وعاد راجعاً إلى المدينة الجامعية قبل

أن تغلق أبوابها فالسكن المخصص للبنات يغلق الساعة العاشرة مساء وللذكور عند منتصف الليل. بحث لما يقارب الساعة ولم يجدها، فعاد إلى غرفته، وعاد يقلب بذاكرته الجميلات اللاتي رآهن واخترقت كيانه صاحبة الجينز، فقام بعمليته السرية، ثم بصق على نفسه لكنه لم يضحك هذه المرة. في الصباح قابل رائداً وبادره:

أهلاً رائد كيف الحال؟ والله معك حق العزيزية شيء مختلف تماماً، البارحة ذهبت ورأيت والله أنت معلم وتعرف من أين تؤكل الكتف.

أجاب رائد بغرور وهم يدخلون القاعة: بعدك لم تر شيئاً سأدعوك لسهرة حتى الصباح عندما يحول لي أخي المصروف لا تستعجل على رزقك و ضحكا معاً وجلسا بنفس المقعد.



الشريك الجديد

عاد إلى غرفته بعد مرور أكثر من أسبوع، على انتظام الدوام الجامعي لم يكن قد يأس من إيجاد صاحبة الجينز، وضع المفتاح ليفتح الغرفة، لكن المفتاح لم يدر حاول الضغط، ولكن الباب فتح من الداخل:

السلام عليكم.

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته: أهلاً صالح، اسمي عبد الله شريكك في السكن أنا من مدينة مسكنة، ولقد تعمدت اختيار المشاركة معك في الغرفة؛ لأني رأيت أنك من الطبقة و تعلم أننا على نفس الخط فبين مدينتي ومدينتك ستون كيلو متراً فقط لا غير.

أهلاً وسهلاً شرفت قالها مبتسماً مخفياً بعض امتعاضه من الأمر فقد تعلم بالأسبوع الفائت على أن يكون وحيداً يخلو بنفسه يفعل ما يريد حتى أن جاراً لهم من السودان لاحظ على صالح كثرة استحمامه فسأله مازحاً لم تترك ماء لنا من كثر استحمامك، فأجابه صالح: الشيطان! فأجابه السوداني: إيه هو عامل معك عقد وإلا إيه، أنا منذ زمن لم أره وضحكا.

عقب عبد الله: أنا أدرس الحقوق وهي مادة نظرية لذلك لن ترى وجهي إلا مرتين في الأسبوع؛ لأني مكلف بتدريس مدرسة ابتدائية في مدينتي فلن أحضر إلى هنا إلا يوم السبت والأحد بعد الدوام أرجع إلى

مدينتي، لأني أنتظم بالتعليم وإن لم يكن حضوري للجامعة ضرورياً لن آتي.

وقعت هذه الكلمات موقعاً حسناً في نفس صالح لقد فقد حريته لكن عادت له بقدرة قادر.

في المساء دعا صالح عبد الله للمشي قليلاً فتوجها إلى الوحدات الخاصة بالبنات كان صالح يريد أن يضرب عصفورين بحجر واحد، يتمشى ويبحث عن ضالته. جلسا على مقربة من الباب الرئيسي وعبد الله لا ينفك يتحدث عن الزراعة والمحاصيل وجمال الحصاد، وكان صالح يقاطعه ويقول:

إيه عبد الله لا تنس أنا سأصبح مهندساً زراعياً. كان يتكلم ويجيب وعيناه كعيني صياد ماهر يراقب كل ما يروح ويجيء، أما عبد الله فلم يكن يكترث كثيراً مع العلم بأنه لم يكن غاضاً للبصر تماماً.

تردد صالح بأن يحكي لشريكه قصة أم الجينز، ولكنه فكر أن يسبر أغوار شريكه أولاً فقد لاحظ عدم انبهاره الكثير بالصبايا الفاتنات المجتمعات من كل أنحاء سورية، فسأله:

عبد الله هل لديك حبيبة؟

أجاب عبد الله: لا والله، لكن أهلي سيخطبون لي ابنة عمي فالعادة عندنا الزواج باكراً كي لا يقع الشاب فيما حرم الله وممكن على الموسم القادم أتزوج!

صالح: الله يتم عليكم بالخير، وتأكد صالح بأنه لا جدوى من أن يفتح قلبه له فالظاهر أن الشاب حسم أمره ومسيطر على نفسه، ولكن هل يمارس العادة السرية مثلي أم أنا لوحدي أفعل هذا؟ ولكن كيف سأسأله هذا السؤال، لم نلتق إلا قبل ساعات ولكن نحن شباب و لا ضير من بعض الكلام، توجه لعبد الله بسؤال:

عبد الله ألم تحب ألم تغازل؟

ضحك عبد الله ورد عليه: كان يوجد قرب مدينتنا وعلى الطريق العام مخيم للغجر، كان السائقون وأهل القرى يقضون ساعات من المرح والمتعة مع صبايا الغجر، فذهبت ذات ليلة واتفقت مع واحدة منهن، ولكن بعد أن أخذت مني الفلوس ضحكت ورقصت لي قليلاً وكنت كلما حاولت لمسها تهربت، ثم طردتني، فأخرجت مسدساً كان معي وهددتها به فقالت لي: (أطلق النار على مؤخرتي، أطلق النار على مؤخرتي) ثم دخل حماتها وطردوني ومن يومها وأنا نادم على المئتي ليرة التي دفعتهم لها . قهقه الاثنان معاً وبدأا يرددا مؤخرتي... مؤخرتي. فقال صالح: أي والله المشكلة كلها بالمؤخرة.

دخلا الغرفة بدلا ثيابهما واندسا كل في سريره، قال صالح بنفسه:

اليوم لا وجود للرياضة الليلية، ولن أستحم، ولابد أن السوداني يراقبني يبدو أن هذا الجار حسود وعينه تصيب فقد أتى من يعكر حياتي، لكن بصراحة وجوده ضروري عليّ أن أترك هذه العادة السيئة، يبدو أني أدمنت عليها و لكنها رياضة، ألم يقل مدرس العلوم أن العادة السرية تعادل المشي لـ ثلاثمئة متر، ويومها قال له ناصر: (يبدو أني أمشي كل يوم ألف وخمسمئة متر) وضحك المدرس وضحكنا، لا ... لا ... إنها عادة سيئة، سمعت أخو صديقي يقول بأنها تجعل اليدين ترتجفان لكن يديّ لا ترتجفان. مازلت شاباً من الممكن أنه قصد عند الكبر، حتى نكبر أعطنا عمراً، قطع هذه التساؤلات الداخلية في نفس صالح صوت عبد الله قائلاً: صالح نمت؟ فأجابه يا ليت، فأنا لا أستطيع النوم مباشرة.

عبد الله: تعرف إني أنتظر الموسم بفارغ الصبر، لأني عند حلول الموسم سأتزوج وسأرتاح من التفكير.

صالح: أما أنا فالعلم عند الله فأبي موظف بالحكومة وممكن بعد خمسة عشر عاماً أتزوج.

عبد الله: تعرف أحد رفاقي كان يعمل خبازاً بالفرن وطياناً بنفس الوقت أتعرف من هي صديقته؟

صالح: من هي؟ عبد الله: حمارة عمياء. فضحك صالح من أعماقه، بل قهقه ونهض من سريره وأشعل ضوء الغرفة وأشعل سيجارة وقال لعبد الله:

أنت تمزح، نعم أنت تمزح!

نهض عبد الله من سريره بحركة مفاجئة وفتح شباك الغرفة وهو يقهقه:

يا أخي أنت تعيش بالطبقة يعني لست غريباً عن المنطقة.

رد صالح: نعم لكن الطبقة تابعة لمدينة الثورة وهي خليط من كل القرى والمدن والمحافظات السورية فنحن سكنا الطبقة عند قيام مشروع سد الفرات تحولت الشركة التي يعمل بها والدي إلى هناك وتحول معهم وسكنا هناك، ولكنا نحن أصلاً من مدينة إدلب. قام عبد الله بالجلوس وقال لصالح:

يا حبيبي كل الرعاة يأخذون معهم أثناء الرعي حمارة وليس حماراً، أتعلم ذلك؟

صالح: لا والله بحياتي ما عملت راعياً. فعاد عبدالله يؤكد:

والله يأخذون معهم حمارة فهي تعتبر شريكة الرحلة رقم واحد؛ لأن الراعي يركبها ويركبها وقهقه من أعماقه. ضحك صالح أيضاً وعاد بالسؤال وما قصة صاحبك صاحب العمياء؟

عبد الله: إنه رفيقي كان معي بالمدرسة الابتدائية لكنه ترك المدرسة ويدأ العمل بالفرن وقد رآه ابن عمي في خرابة وهو ينكح

الحمارة ومنذ ذلك اليوم نناديه (أبو العمياء) وكل أهل القرية ينادونه بنفس الاسم إلى حد الآن وكان أبو العمياء يأخذ للعمياء فضلات الخضار والفواكه من سوق الخضار ويطعمها كل يوم، كان يهتم بها فالمسكينة عمياء وتقبع بدار مهجورة ليلاً ونهاراً.

أثارت هذه الحكاية صالح وأكدت له أن شبقه للجنس ليس مرضاً كما ظن لبعض الوقت، بل طبيعي فهذا شريكه المعتدل ينتظر بفارغ الصبر زواجه وصاحب العمياء صاحبه لا يدري إلى أي حد وصل.

لم يدر صالح كيف غفلت عيناه بعد سماعه قصة أبي العمياء، مئات الأسئلة راحت ورجعت بعقله واستيقظ على صوت قرآن صوت جميل يتلو القرآن عند الفجر، فتح عينيه فوجد شريكه يصلي الفجر، أحس بحرقة شديدة فمنذ أن أتى إلى هذه الغرفة لم يصل ولا ركعة حتى الجمعة لم يصلها، أحس بأن جبال الأرض تجلس على صدره، قد كان ملتزماً بالصلاة فلما تركها من أجل صاحبة الجينز، لعنة الله عليها، من أجل الكاسيات العاريات اللاتي يقمن بإضرام النار بداخله وتركه يتلظّى، جمع قواه ونهض من السرير وتوضأ وصلى الفجر، شعر براحة شديدة، شعر بنظافة نفسه ونقاء روحه، وتناول القرآن وبدأ يقرأ.

صالح: لم أرك تصلي البارحة؟

عبد الله: ولا أنا!

صمت صالح وعرف أنها خلجات روحية تضرب قلب المسلم منذ حين إلى حين، ولكنه بقرارة نفسه قرر أن لا يترك الصلاة من جديد.

أهلاً رائد، أتعلم لقد سمعت قصة في الأمس شيبتني، وطيرت برجاً من أبراج عقلي!

رائد: شوقتني يا رجل احكها لي ودع برجين من عقلي يطيران.

بعد المحاضرة تدعوني لشرب فنجان قهوة وأقصها لك. في القاعة لاحظ صالح أن رائداً جلس بجانب طالبة حسنة الملامح وتركه يجلس بمفرده، إلا أن الصدفة قادت له زميلة جلست بقربه بعد أن بدأت المحاضرة بأكثر من خمس دقائق. كان الحس الديني وصلاة الفجر مازالت تسري بعروقه فابتعد عنها بشكل لاحظه كل من في القاعة فبدا على صالح أنه من المحافظين. لكنه بعد أن ابتعد شنت نفسه حرباً هوجاء عليه:

لماذا ابتعدت؟ هل ستأكلك أم تعتقد أنك الذكر الوحيد؟ لا... لا... لابد أنك من أجمل رجال الأرض والفتيات لا يستطعن النوم من جمالك! يا غبي الفرصة جاءت لعندك وبقدميها، ألم تكن تحلم بالجينز؟ ها هي ترتدي جينزاً، وضيقاً بعد، ماذا تريد؟ تريد العودة إلى عادتك السخيفة، ثم تبصق على نفسك! ها هو نصفك الثاني يجلس بقربك، لاطفه ببعض الكلمات، وادعه إلى فنجان قهوة، وناقش معه المحاضرة، ورويداً رويداً يتعلق بك وتتعلق به، ونظراً لظروفكم الصعبة، تبررون لنفسكم الحب وممارسته فتصبح ستراً وغطاءً لك. يا غبي يا غبي! كان يسمع هذا الصوت من داخله وهو يسترق النظر للتي جلست قربه:

آه لو يميل المقعد فأرجع قربها!

يا غبي هذا مقعد وليس باصاً! ضحك من نفسه وعليها. انتهت المحاضرة وخرج ليلحق برائد ليشرب القهوة ويحكي له القصة، لكن رائداً لم يعره اهتماماً فقد تمشى مع الفتاة التي كانت بقربه وذهبا إلى مقصف الكلية، وبينما كان رائد يدفع قيمة المشروبات مقدماً وزميلته كانت جالسة على الطاولة تنتظر قدومه كان صالح يقف خلفه مباشرة ويهمس بأذن رائد:

يا حيف عليك يا ابن البلد، بعتني من أجلها!

رد رائد ضاحكاً: بلا ابن البلد بلا بطيخ أتريدني أن أترك هذه الفرصة من أجلك، كبر عقلك الله يرضى عليك بالنسبة لي كل لمسة يد من فتاة تساوي خمسة عشر شاباً، وأنت كانت زميلة أخرى تجلس بجانبك لمَ ابتعدت عنها؟ لمَ لم تدعها، كنا جلسنا معاً!

ترك رائد صالحاً مزداداً حيرة وجلس مع زميلته يتحادثان ويضحكان وصالح يدخن سيجارته ورأسه ككرة قدم في ملعب إنكليزي.

عاد للمحاضرة الثانية وهو كله أمل أن تكون الشابة ما تزال هناك لكنه صفع على وجهه فقد رأى شاباً أجعد الشعر أسمر اللون، عيناه واسعتان، تلمح في وجهه علامات الصفاء، و قد لفت انتباه صالح أن حاجب أجعد الشعر كان أبيض، سلم صالح عليه وجلس جانبه وهو يندب حظه. التفت أجعد الشعر وقال لصالح: اسمي حسان، من حلب. أهلاً وسهلاً، قالها صالح وهو يدقق بحاجبه الأبيض، فانتبه حسان وبدأ يفرك حاجبه بأصابعه وقال ضاحكاً:

هذا طلاء فأنا أعمل دهاناً قبل وبعد الدوام ولم أنتبه لأني كنت أود اللحاق بهذه المحاضرة، فالمحاضرة الأولى أستطيع أن أفهمها لوحدي أما هذه المادة فأحتاج لشرح الدكتور.

أنس صالح لحسان وأحس بأنه كان ينتظره منذ زمن.

بعد انتهاء المحاضرة، وقف صالح وحسان أمام باب القاعة ينتظرون المحاضرة الثالثة والأخيرة لهذا اليوم، انضم إليهم رائد: السلام عليكم. وعليكم السلام رد الاثنان معاً. كانت ابتسامة نصر عظيمة ظاهرة على وجه رائد قرأها صالح بوضوح وعرف بداخله سببها. صالح: رائد حسان من حلب، ورائد من الرقة.

تبادلا الاثنان التحية والترحيب فتوجه رائد إلى صالح قائلاً:

أي معلم وعدتني أن تروي لي حكاية تجعل عقلي يطير، هيا اجعلنا نسمع.

صالح: لا ... لا داعي قد كنت متحمساً، ولكنك أنت تركت حماسي يبرد فحسب أولوياتك تدير الأمور. رائد : يا حبيبي الله يطول عمرك لا تدقق في الأمور الصغيرة وتذكر قول الشاعر: (إن كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لن تلقى الذي تعاتبه) حبيبي أنت معي بس الظرف الذي كنت فيه يعطيني العذر بالنسبة لك أستطيع أن أذهب معك الآن إلى الغرفة وأنام عندك وأنت تستطيع أن تأتي معي وتنام عندي أما هي فللوصول لهذا تحتاج تعب وسهر ليالي وكذب، والتفت إلى حسان وقال له: صحيح؟ فرد حسان:

على ما أعتقد صحيح لكن الله يسترنا من الكذب! فقال رائد ضاحكاً:

يا عمي اكذب حتى تصدق نفسك وحتى تسجل عند الله كذاباً واستطرد فقط على الفتيات. وقهقه بصوت عالٍ وألح على صالح بأن يروي له الحكاية. تنهد صالح، فإلحاح رائد أعاد إليه صراعه المستمر، اسمعوا يا شباب: شريكي في الغرفة من مسكنة وقد حكى لي قصة عن رفيق دراسة له قديم يمارس الجنس مع حمارة عمياء وقد انفضح أمره والناس ينادونه (أبو العمياء) وأنا جننت من هذه القصة وأكاد لا أصدقها. فضحك رائد ضحكة عالية وقال:

لا حبيبي صدقها فهذه العادة منتشرة بالريف بشكل عظيم حتى أنه بقريتنا يوجد شخص إلى حد الآن ينادوه (أبو الكلبة)، فقد استيقظوا يوماً ووجدوه عالقاً وراء الكلبة، فقام ابن عمه بخنق الكلبة وتحريره ومنذ ذلك اليوم ينادونه أبو الكلبة.

رد حسان: حيوانات...! ادخلوا للقاعة فقد حضر المعيد.

في الغرفة وبعد القيلولة، أمست الدنيا ولم يأت عبد الله: يبدو أنه سافر، شعر باكتئاب بسيط فبالرغم من أن عبد الله لم ينم إلا ليلة واحدة إلا أنه ملأ وحدة صالح وأبعد عنه شيطانه الذي لم يعد يفارقه. لماذا سافر عبد الله؟ لقد قال أنه سيبقى يومي السبت والأحد من كل أسبوع، ما علينا الله المستعان، يا إلهي لم أصل الظهر والعصر قام متكاسلاً، صلى المغرب حاضراً وقضى الظهر والعصر.

لم يكن يدري ماذا يفعل لم يحن موعد الدراسة وليس لديه أصدقاء وهو بالغرفة وحيداً، أعاد التفكير براوية عبد الله ورواية رائد وتذكر تعليق حسان، هل هم حيوانات، ممكن فالحيوان يمارس مع الحيوان والبني آدم يمارس مع بني آدم، لا ... لا مع نفسه أيضاً، لا الضرورة لها أحكام فأنا أمارس مع نفسي لأني لا أملك خياراً آخر، نعم أنا سوي بكل ما تعني الكلمة والباص أكبر دليل على ذلك فمجرد أني لمست أنثى انفعلت معها رغم الازدحام نعم رغم الناس و رغم كل الظروف انفعلت معها وأنهيت معها، آه لو كنا في غرفة، لا بل في مغارة يا أخي في صحراء كنت سأريها العجب، نعم أنا رجل نيراني، قوي، أنا فحل بكل ما تعني الكلمة في الباص وهكذا، فكيف لو كان الجو مناسباً، وهو بهذا الحديث شعر بحرارة جسمه، وكأنما التأكيد على ما قال وفكّر قادمٌ إليه بالطريق ولم يجد نفسه إلا وقد انتهى، ثم نظر إلى المرآة وعاد من جديد يبصق على نفسه.



أم الجينز

تعلم صالح من حسان أن المحاضرة الأولى تفهم دون داع للمعيد هكذا قال حسان، فقرر صالح أن لا يحضرها دون أن يكون متأكداً من قدرته على فهمها لكن هكذا قال حسان، فحسان ليس أذكى مني، أقنع نفسه بالفكرة ونزل متأخراً من الغرفة، عنده وقت فقرر أن يمر من بين الوحدات الخاصة بالبنات ومن ثم يمر على كلية العلوم فكليته فطريقه المباشر من وحدته إلى كلية العلوم فكلية الزراعة، إلا أنه أطال الطريق، علَّ وعسى! كان يمشي كعادته دائم التفكير، أحياناً منكباً على وجهه وأخرى كرادار يكتشف كل محيطه أثناء مشيه. لمح، أمعن، نظر، تأكد، والله هي نعم إنها هي آه ما أحلاك يا حظي وجدتها تمعن أكثر والله العظيم هي والله أعرفها من بين ألف فتاة، صورتها محفورة بعقلي عندما نظرت إليَّ ونزلت: استنفر جسده و بدا مستعداً لأي شيء، الذاكرة تؤكد والعقل يؤكد، لكن يجب أن أراها من الخلف حتى أحصل على التأكيد النهائي، تظاهر بأنه يربط حذاءه وجعلها تمر دون أن تراه ولما مرت بقربه وتجاوزته أدار رقبته ونظر إلى خلفيتها ونادى به صوت يعرفه جيداً: هي... هي فأنا أيضاً أعرفها وواثق من أنها هي!

لحقها... حاذاها وقال لها: يا آنسة صباح الخير! لم تجب ولم تلتفت حتى. يا آنسة الله يصبحك بالخير السلام لله ردي! لكنها ظلت

تمشي وهو يمشي بجانبها تماماً حتى أن من يراهما من بعد يعتقد أنهما معاً. يا بنت الحلال صار لي أكثر من عشرين يوماً وأنا أبحث عنك!

لما سمعت هذه الجملة التفتت إليه وكأنما وقع على رأسها الطير، ارتبكت، ارتجفت، ارتعشت، و أسرعت بالمشي. يا آنسة والله لن آكلك فقط أعطيني خمس دقائق الله يطول عمرك! استمرت بصمتها واستمر بإلحاحه! لم يكن يدري صالح من أين أحضر هذه الجرأة، ولكن كما يبدو أنه أخذ وجه عليها فلم يشعر بأي إحراج أو خجل أو حتى خوف وكأنه يعرفها من زمن بعيد. أعاد المتيم المحاولة، وقفت فوقف، فتحت دفتراً ومزقت منه ورقة وكتبت له: ابتعد عني يا حقير!

يا إلهي صماء خرساء! يا إلهي الله يلعن أبا حظي، ألهذا صمتت! ألهذا لم تتكلم، وأنا كنت أعتقد أنها مستمتعة معي! يا الله ما أحقرني يا الله ما أسفلني، متعت نفسي مع خرساء عجزت عن الكلام! لكنها خرساء وليست كسيحة، كان بإمكانها أن تبتعد عني، خرساء لكن لها حواس، لا ... لا أنا لست مذنباً لو كانت تريد الابتعاد لابتعدت، كان هناك ألف طريقة تستطيع منعي، لا لابد أنها وافقت على ما جرى، ولكن ضميرها أنّبها كما فعل ضميري بي، وانتفض وقال لها:

أعلم بأنك تفهمي كل شيء، أنا أريد أن أقول لك: أنا آسف.... كان غصب عني... لم أستطع التحكم بنفسي... و والله من ذلك الوقت و أنت تسكنين ذاكرتي ولو بالغت تسكنين مهجتي، لم أستطع أن أنسى ذلك المساء.

كتبت له ورقة أخرى: ابتعد عني أيها الحقير!

رجاء احترمي نفسك خرساء وسليطة اللسان أيضاً قلت لك أني أريد الاعتذار. ناولته ورقة أخرى:

خلص اذهب لو سمحت. صالح: لن أذهب أريد أن أدعوك لشرب أي شيء. لا ... لا أستطيع رجاء اتركني قبل أن أنادي لأمن الجامعة، كانت ورقتها الثالثة أو الرابعة. لو سمحت سؤال أخير:

هل تسامحيني على الأذى الذي ألحقته بك؟ فكتبت له: أي أذى؟

دهش صالح وأشار لها بلغة الإشارة (بالباص وأنا كنت لاصقاً بك) كان يتكلم ويشير بيديه وجسمه فكتبت له: أنا لا أعرف عما تتكلم!

صعق صالح: أين رجولتي لا إنها كاذبة هل من المعقول أنها لم تحس بي لا ... لا إنها كاذبة أنا رجل نعم أنا رجل. وإذ به يستيقظ من نومه ينظر حوله متأملاً:

يا الله ما هذا الحلم! ما هذا الكابوس!. نظر إلى الساعة إنها التاسعة صباحاً، فاتتني المحاضرة الأولى، يا الله كما قال حسان نستطيع أن نفهمها دون شرح المحاضر.

نزل من الغرفة وهو يضحك فقد تذكر نكتة حكاها له، لم يتذكر من حكاها (رجل تزوج صماء فقام بليلة الدخلة بمد الحرام على الأرض وانقضّ عليها وهي تمانع بشدة ويتملكها الخوف وبعد أن انتهى وأحست بالمتعة صارت كلما دخل زوجها إلى الغرفة تقوم بمد الحرام على الأرض)!



أم أحمد

ما إن وصل صالح إلى الكلية أقبل رائد مسرعاً نحوه، أين أنت يا رجل شغلت بالي حتى أني ما فهمت المحاضرة وأنا أفكر فيك!

رد صالح: لا يا رجل لا تخف عمر الشقي كما يقال بقي.

رائد: اسمعني صالح الحوالة وصلت وأنا وعدتك بسهرة واليوم يومنا يا بطل.

صالح: والله يا عم أنا جاهز لكن بشرط! ما هو، علّق رائد! أن لا أردها لك! فضحك الاثنان.

في السابعة مساء توجه صالح إلى بيت رائد وقد وصل دون أن يسأل أحداً لأن العنوان كان واضحاً جداً صعد إلى الطابق الخامس طرق الباب فتح رائد الباب، دخل صالح كان المنزل عبارة عن غرفة وصالة متداخلات على شكل عربة قطار قطعت إلى نصفين، كان باب الوسط الفاصل زجاجي بالكامل لكنه زجاج كما يقال محجر وليس شفافاً، البيت بسيط وصغير، تلفاز، وفيديو كاسيت وكنبة، هذا فرش الصالة، جلس صالح وشد انتباهه في التلفاز، أناس عراة ويمارسون الجنس ويتأوهون وقد اختلط الحابل بالنابل واختلطت الأجسام ببعضها حتى تعذر عليه أن يميز هذه الفخذ لأي وغد تابعة أو لأي سافلة هي، وبينما هو في قمة دهشته وتوتره، فهذه أول مرة بتاريخ

حياته يرى هكذا أفلام حتى أن في بيت أهله لا يوجد فيديو، كان رائد يصيح: هي أبو الشباب سلم، هي صالح سلم على حامد، استيقظ من غفلته صالح، أو عاد إلى وعيه، نهض وصافح شاباً لا يدري من أين أتى، فلم يسمع صالح دق الباب أو رن الجرس ولكنه تفاجأ به يقف فوق رأسه ويمد يديه:

أهلاً... أهلاً أنا آسف ولكن شتت تركيزي هذا المعروض!

فضحك رائد وصديقه وقال: حبيبي لم تر شيئاً بعد! على كل.. هذا السافل حامد! مقدماً صديقه لصالح بهذا الشكل. أهلاً وسهلاً تشرفنا.

رائد: أي تشرفنا يا رجل قل توسخنا قل تبهدلنا فهذا حامد رجل الفساد الأول في العالم ووساخته تكفي مدينة كاملة! فقال حامد وهو يضحك:

أخي لا تصدقه فو الله هو أوسخ مني وأنجس مني.

رائد: اسمع صالح واحكم بالله عليك، هذا الرجل لم يترك شيئاً من شره، الصبيان، الحمير، الكلاب، حتى المسنات، وضحك رائد ضحكة عالية وبدأ يهتز من شدة الضحك حتى أن صالحاً وحامداً ضحكا من ضحكة رائد. قام حامد بدفع رائد دفعة قوية أوقعته على الكنبة المهتزة القوائم وقال لصالح:

عمي لا تصدقه والله إنه يهول الأمور وفقط يريد أن يلطف الجو.

لكن رائداً عاد وأكد لصالح بأن حامد قطع السبعة وذمتها كما يقال والتفت إلى حامد وقال له:

يعني فهمنا أنك شاذ وأيضاً كذاب، ألم تنكح الصبي عبد الرؤوف؟ أنت قلت لي والحمارة والكلبة لا... لا أحلى شيء أنه نكح امرأة

تجاوزت الستين، وكان يضغط عليها بقوة معتزاً بشبابه فقالت له العجوز: (حبيبي شوي شوي ألست خالتك) ودخل الجميع في نوبة هستيرية من الضحك وهم يرددون: ألست خالتك آه يا خالة، آه يا خالة! فقال رائد:

والله لألعن أبا خالتك يا حامد. كان صالح يضحك من كل قلبه، لكنه لم يكن يضيع كلمة مما سمع، وتأمل حامد طويلاً كان قصير القامة، شعر رأسه خفيف جداً والصلع بدأ فيه رغم صغر سنه، ممتلئ الجسم وكأنما سكب قطعة واحدة وقد عرف من لهجته أنه من المنطقة الشرقية، لكن كانت ملامح وجهه غير مريحة و لا تدعو للطمأنينة أبداً. التفت صالح إلى حامد وسأله: من أي مدينة أنت؟

فرد حامد: مدينتي بين مدينتك ومدينة رائد. فقال صالح: المنصورة. رد حامد:

إني من المنصورة نعم أحسنت يا صالح! لقد حدثني عنك رائد كثيراً وقال لي أنه يريد أن يدعوك إلى سهرة لكي تفض بكارتك! دهش صالح من هذا الكلام وبدأت الوساوس تساور عقله وقد لاحظ حامد عليه فقال له: قال لي رائد أنك خام بعد ولم تمارس الجنس بعد، وقد اتفقت له اليوم مع أم أحمد وقلت لها نحن ثلاثة وستأتي الساعة العاشرة. وقعت كلمات حامد كالثلج على مسامع صالح بنفس الوقت حملت معها ناراً محرقة فقد أمن نفسه من وساوس الشيطان، وسيأتي النصف الحقيقي صحيح أنه مشترك ولكنه طبيعي ذكر وأنثى وقال بنفسه:

الاشتراكية ليست عيباً! وضحك لوحده. الوقت يمر ببطء، كان صالح قد بدأ يدخل في الجو، سماء الغرفة غطاها دخان السجائر، والفيديو كان يعمل لخمس دقائق، ثم تشوش الصورة لخمس أخر، أحس

بالحرارة التي يحسها كل مرة قبل أن يبصق على نفسه، وكان الفيلم المعروض قد أطار برجاً من عقله خاصة عندما شاهد سيدة شقراء جميلة تستعمل عضواً بلاستيكياً فقال بنفسه: (لماذا ألا يوجد رجال)؟ فقام من مكانه وهو يرتب بنطاله ودخل إلى الحمام وانتهى، نظر إلى المرآة إلا أنه لم يبصق على نفسه هذه المرة! خرج من الحمام فقال له رائد:

وجهك أحمر، سافرت؟ ضحك صالح.

رائد: والآن عندما تأتي أم أحمد ماذا تفعل؟ لا تخف علي دعها تأتي وسنرى! أجابه صالح.

رائد: يا حبيبي أعرف فأنا في ليلة واحدة أنهيت ثماني مرات، حتى حامد كان شاهداً لأن أم علي حكت له.

صالح: رائد من هي أم أحمد؟ من هي؟ عاهرة مصبوغة باللون الأصفر كسيارة الأجرة!

صالح: لكن رائد لماذا يقولون: (العاهرة والسائق وشرطي المرور متشابهون)؟ لماذا يجمعون هؤلاء الثلاثة دائماً معاً؟ يا حبيبي لأن الثلاثة ليس لهم صديق ولا يحترمون الصديق!

كان صالح يتكلم مع رائد وينظر إلى الساعة، الساعة تشير إلى الثامنة والنصف متى ستأتي أم أحمد؟ هذا السؤال الذي لم يفارق رأس صالح. حامد: أنا أول واحد.

رائد: لا أنا الأول أنا صاحب البيت وأنا من سيدفع. فقال صالح: اسمعوا يا شباب، تخيلوا أننا بالباص مسافرين إلى عند أهلنا فمن ينزل أولاً؟ فقالا:

أنت يا صالح أفندي فقال صالح: إذاً أنا الأول. فالتفت حامد إلى رائد وقال له:

قلت لي أنه خام. يا حبيبي هذا قرد شيطان يريد أن يضحك علينا بالجغرافية. وقعت هذه العبارة في قلب صالح وشعر بأذى منها، لكنه فوتها فلا يريد أن يفوت هذه الفرصة؛ لأن كل شيء يهون من أجل عيون أم أحمد. أصبحت الساعة التاسعة والنصف، فقام حامد وقال:

جهزوا أنفسكم فأنا ذاهب لإحضارها! الأمر جاد وليس به أي نوع من الغش أو الكذب كعادة رائد، يعني فعلاً ستأتي أم أحمد وفعلاً سوف أخسر بكارتي هذه الليلة، نعم سأدشن أول مشروع جماع عن حق ليس لمساً ولا تخيلاً ولا باصاً، بل أمراً حقيقياً، نعم ستكون تحتي وأكون كصقر منقض على أرنب، سأجعلها تصرخ، ولكن كيف ستصرخ، سيكون الشباب بالخارج، قد تستحي وتكتم صوتها وتتألم بصمت، يا عيني على الصمت، لا أعتقد أنها لن تصمت لأنها لا تستطيع ذلك سأجعلها تتألم، والمتألم لا يخفي ألمه، بل عندما يصرخ سينفث عن كربه! وهو بهذه التخيلات قال له رائد:

انظر! نظر إلى شاشة التلفاز وإذ اثنان مفتولا العضلات، متناسقا الأجسام يتناكحان! فصرخ صالح: أعوذ بالله.. أعوذ بالله الله يخليك أطفئه لقد اقشعر جسدي من هذا المنظر! قام رائد وأطفأ الجهاز فقال له صالح: والله إنهم حيوانات بكل ما تعني الكلمة، والله إنهم مقرفون جداً، يا إلهي كم هذا مقرف ومقزز فتدخل رائد: حبيبي هؤلاء ملوا من النساء، فالنساء لم تعد تثيرهم فأحبوا أن يجربوا شيئاً جديداً، ألم تر نساءهم يستعملن أعضاء بلاستيكية، حبيبي هذا عالم الجنس، فإذا شحن الشاب إلى درجة الغليان أضاع عقله وإذا ضاع العقل أصبح الإنسان حيواناً، فالذي يفرق بين الإنسان والحيوان هو العقل فانتبه على عقلك يا بني.

فقال صالح: الله يرضى عليك يا عمي، بالحقيقة يجب أن تكون مثلاً يحتذى بك! فقال رائد: لا حبيبي أنا لا أكتم نفسي ولا أحرمها لذلك تراني دائماً أبحث عن أنثى فوجود الصاحبة ضرورة بالحياة، يا أخي الدنيا كلها ذكر وأنثى. أعجب صالح بكلام رائد، على الأقل يعرف ماذا يريد ويدير نفسه حسب ما يريد، أما هو فنفسه كبحر متخبط الأمواج لا يعرف مقراً أو مستقراً.

الساعة العاشرة، يجب أن يدخل حامد وأم أحمد معه، كان صالح في كل لحظة ينظر إلى الساعة وأصبحت الدقيقة تمر ببطء شديد، السيجارة لم تطفئ، آذانه وحواسه كلها معلقة بباب الشقة الذي لا يبعد عنه أكثر من ثلاثة أمتار أما رائد فكان هادئاً جداً وكأن شيئاً لم يكن. بل شغل نفسه بالتلفاز الذي كان يحتوي قناة واحدة رسمية حكومية. العاشرة وعشر دقائق لم يأت أحد! أحب أن يسأل رائد إلا أنه آثر السكوت والصبر. العاشرة والنصف، شعر صالح بأنه سينفجر من القهر، لماذا أتيت؟ كان يجب أن أبقى بغرفتي، لماذا أحرق أعصابي؟ لا يجب أن تصبر فالذي يريد العسل يتحمل لسعات النحل، ولكنها تأخرت! نعم تأخرت كثيراً، أين أنت يا حامد. ما من رد.

صالح: لماذا لم يرجع حامد؟

رائد: إنه ينتظر عاهرة والعاهرة تصدق مرة وتكذب ألف مرة، حامد وعدها الساعة العاشرة عند باب الحديقة العامة وهو ينتظرها هناك ويدخن أكثر منك فهو شبق جداً للجنس.

صالح: وأنت؟ فأجاب: أنا أعد نفسي لكل شيء، إن جاءت كنت لها بالمرصاد وإن لم تأت وكذبت، برمجت نفسي وأجلت الأمر لمرة أخرى، وإن لم يكن معها فمع غيرها، فالله لا يقطع أحداً. ورفع يده

للسماء وقال: اللهم لا تقطعنا . عجب صالح من رائد كيف يدخل الله عز وجل بهذه الأمور! والله حيرني هذا الشاب.

دق الباب - الساعة الحادية عشرة والنصف تماماً - دخل حامد ولم تدخل أم أحمد: الحقيرة لم تأت! لم تأت بنت الكلب! ساعة ونصف وأنا أنتظرها، لكنها لم تأت. صعق صالح، أراد أن يتكلم، لكنه أحس بالخجل، أحس بالإحباط. كان حامد ما زال يشتم ويلعن ورائد يضحك وصالح يحلم بأم أحمد وأم الجينز معاً.



ضيفة أخت صالح

قضى صالح عطلته الأسبوعية في الطبقة، حيث نال رضا والديه وصلى الجمعة مع أبيه وقرأ سورة الكهف بعد صلاة الجمعة كالعادة التي علمه إياها والده. أعادت له هذه الإجازة الطمأنينة لروحه ونفسه، وحصل على ما يكفي من دعاء بالتوفيق، وفي طريق العودة كان يركب باص (الهوب هوب) وهي صفة تطلق على الباصات في تلك الأيام من كثرة توقفها على الطريق لصعود ونزول الركاب، كان يجلس ويرقب الطريق الممل فالمسافة لا تتجاوز المئة والستين كيلو متراً إلا أن الوقت اللازم لقطعها يصل إلى أربع ساعات، كان يجلس قرب النافذة ويرقب الأراضي المفلوحة والمبذورة للموسم القادم الذي ينتظره شريكه عبدالله: (جميل أن ينتظر الإنسان أمراً ما، لكن الخوف أن يأتي الموعد ولا يأتي الشيء المنتظر، كما حصل مع أم أحمد).

تبسم وقال: الحمد لله لم نرتكب جريمة الزنى، قدر الله وما شاء فعل، الحمد لله إني بقيت بكراً، وتبسم من جديد. حاول الشخص الذي يجلس قربه أن يجاذبه أطراف الحديث، لكن صالحاً لم يكن له خاطر بذلك فاكتفى بردود مقتضبة ففهم شريكه بالمقعد والتزم الصمت، لم يكن صالح أبداً صامتاً فالحوارات

الداخلية لا تنتهي ولابد أنه مكون من شخصين أو ثلاثة، أشخاص متناقضين جداً، وكل منهم يجذبه لطرفه، وكثيراً ما أحس صالح برغبة في الصراخ أحياناً ليخلص من المناقشات الداخلية التي تدور بخلده على مدار الساعة. يسترجع ذكرياته للسنة الماضية، الكل كان يتوقع منه أن يحصل على مجموع يؤهّله لدراسة الطب البشري أو الهندسة المدنية، ولكنه لم يفلح كما يجب، مع أنه لم يقصر بالدراسة، ولكن ربما بسبب الحوارات الدائرة في عقله جعلته يخفق بتحقيق علامات عالية.

وصل إلى دوار الصاخور (وهو أول دوار في مدينة حلب من الجهة الشرقية) تكاسل أن يذهب إلى المدينة الجامعية الواقعة في الجهة الغربية من حلب، فتوجه إلى بيت أخته وهو متردد، ولكنه قال في نفسه: هذه سنة الحياة دعهم يفعلون ما يشاؤون طالما أنه بالحلال سأجعل أذني واحدة من طين والأخرى من عجين. وصل البيت فشاهد بالمر أحذية كثيرة جداً فعرف أن لديهم ضيوفاً. سلم ودخل نهض الجميع للمصافحة، كان يرقب في عيني أخته فرحة معينة، عرف أنها فرحة لفخرها به فهو سيصبح مهندساً لا يهم مدني أو زراعي المهم أنه مهندس. عرف الجماعة الموجودين فقد كان قد قابلهم عدة مرات مع أهله في زيارات قديمة لمدينة حلب، وما لفت انتباهه هي شابة يبدو عليها بالخامسة عشرة من عمرها كان قد رآها من قبل ولكنها كانت جد صغيرة، أما الآن فقد كبرت، أصبح لها صدر بارز وشعر طويل، وبياض ناصع، إنها زهرة أكملت تفتحها، ولكن البراءة في عينيها، والولدنة كما يقال تتملكها، لدرجة أنها كانت تلعب مع بنات أخته اللاتي لا يتجاوز عمرهنَّ التاسعة أو العاشرة.

دارت أحاديث مختلفة أهمها عن صحة الأهل بالطبقة ولِمَ لا

يأتون للإقامة في حلب، وكان صالح يجيب بكل أدب فهكذا هو صالح – الناس تحلف برأسه – أدب، وقوام ما شاء الله وخجول كبنت البيت، هذه صفات صالح بين أقاربه ومعارف أهله، حتى أن أقارب أهله يعيرون أولادهم بصالح، وكثيراً ما سمع إطراءات نقلت له من أخته أو أمه أن فلاناً قال لابنه: (يا ليتك مثل صالح). كان يقول لنفسه:

إذا علموا ماذا يعمل صالح وماذا كان ينوي أن يعمل هل سيستمرون بهذا المديح؟ لكن الله ستار ويحب الستر وأنا أستر على نفسي ولم أتسبب بأذية لأي شخص إلا صاحبة الجينز، ولكني لم أسبب لها الأذى، لم أفض بكارتها وأرميها بالشارع، ولم تحمل مني، ثم أتبرأ مما في بطنها ومنها، مجرد صدفة وأنا أحمل الأمر أكثر مما يجب، فممكن أنها نسيت كل القصة أو أساساً لم تفكر بها، لكن ربما لم يكن هناك أصلاً أم الجينز، لا مستحيل كانت موجودة، يبدو أنك بدأت تخلط زيت على ماء كالمحرك الذي أصابته حرارة عالية، حتى أنا ممكن أن تكون حرارتي مرتفعة!

التفت إلى أخته وقال لها:

ضعي يدك على جبيني أحس بأن حرارتي مرتفعة! وضعت أخته يدها على جبينه وقالت له:

أنت طبيعي على كل سأعد لك كأس ليمون، فالليمون نافع، الله النافع. التفتت إليه أم الشابة وقالت له: كيف الدراسة معك. الحمد لله لا بأس، فأردفت: يجب أن تخطط لنا حديقة بيتنا فلدينا في بيتنا الجديد حديقة تتوسط أرض الدار. فرد صالح:

على عيني ورأسي لكن ليس الآن؛ لأنه لم يمض عليَّ بالقصر إلا من البارحة العصر. فضحك الجميع على هذا المثل وعلى ذكائه

بالتملص من الطلب. توجهت الصغيرة إلى أمها: ماما خلي صالح يفهمني درس العلوم ؛ فالتفتت الأم إلى صالح: صحيح ممكن تشرح لها درس العلوم فهي بالأول الثانوي ومادة العلوم صعبة. ارتبك صالح بعض الشيء لكنه قال لها:

أهلاً وسهلاً لكن بعد أن أشرب الليمون. حسنٌ. تناول صالح كأس الليمون من يد أخته وبدأ يشربه ببطء شديد، كان يريد أن يمر الوقت وتنسى الأم مادة العلوم، كان يخاف على نفسه، فهو كما يقال (واقف على شعرة) وهذه الشعرة لا يدري متى تنقطع. كان يشرب شفة... شفة ويقوم بتحريك السائل الليموني في كل جوانب حلقه كأنه صدق أنه مريض. نظر خلسة إلى الشابة فرآها تمسك كتاب العلوم بيدها وتنتظر أي إشارة منه لتأتي قربه: جميل أن تكون قربي ولكن الأجمل أن تكون بحضني! لعنة الله عليك، يا رجل أمها وأبوها أمنوك عليها وأنت تفكر هذا التفكير! لا ولكن أتخيل نفسي أني لو سألتها وخيّرتها بأن أدرسها أو أداعبها لاختارت المداعبة أنا واثق! أنت الله يلعنك، لقد صرت وسخاً تماماً. لم تعد صالحاً الذي يفخر به أبوه وأقاربه لقد صرت طالحاً يا صالح! ايه لحظة فالله عز وجل لا يحاسب إلا على النوايا الحسنة وأنت تحمل علي وكأنني اغتصبتها!.

صالح... سمع صوتاً يناديه التفت إلى يمينه وإذ بأم الشابة تناديه وتؤشر لابنتها للاقتراب منه فاقتربت ملاك الرحمة منه وكتاب العلوم بيدها وجلست جنبه على الأرض وقالت له:

أنا ضعيفة بالعلوم وإن شاء الله سوف أدرس العام القادم في الفرع الأدبي وليس العلمي، ولكني أريد أن أنهي الصف العاشر على خير. حسنٌ قال صالح، واستجمع قواه كرجل عاقل تملؤه المروءة:

حسنٌ لو أنك كنت قربي وكنت أستطيع أن أدرسك لجعلتك تحبين الفرع العلمي على كل ما علينا بهذا الكلام، دعيني أرى ما تحتاجين إليه؟ فتحت الكتاب، هذا الدرس وهذا وهذا! ضحك صالح وقال لها: قولي كل الكتاب! فغردت الشابة بضحكة عذبة، وقد وضعت يديها على وجهها وفمها محاولة إغلاق فمها حسنٌ بسم الله، وبدأ صالح الشرح. لكن الغرفة كانت تعج بالأولاد واللعب وأحاديث الكبار وصوت التلفاز، وكان صالح في كل لحظة يصرخ على أولاد أخته ليلزموا الصمت ليتسنّى له شرح الدرس للضيفة ولكن لا حياة لمن تنادي، فتدخلت أم الشابة وقالت له اذهبوا للغرفة الثانية فلن تستفيدوا هنا شيئاً نهض صالح وحمل الكتاب وتوجه للغرفة الثانية ولحقت به الشابة، ودخلا الغرفة الثانية التي يطل شباكها على باب غرفة الضيوف ويفصل بينهما فناء الدار، فالموقع إستراتيجي، والخلوة خلوة، وسأل نفسه متى سيأتي الشيطان؟ كانت الفتاة تجلس قربه على الكنبة والنافذة أمامه فأي حركة خروج أو دخول يستطيع أن يراها صالح ونظراً لأن زجاج الغرفة كان محجراً فيتعذر رؤية أحد داخل الغرفة؛ لأن الإنارة بشكل عام خفيفة. كان صالح يشرح الدرس ويقوم بتحريك عضلات صدره يمين شمال يمين شمال وكأنه إيقاع طبلة دوم تك دوم تك، فتوجهت إليه الفتاة بسؤال مباشر ومفاجئ:

كيف تستطيع تحريك صدرك؟

عادي، بل أقل من عادي يوجد في الصدر عضلات أستطيع التحكم بها حتى أنت تستطيعين فعل ذلك!

كيف؟

بسيطة حاولي أن تحركي عضلة صدرك فتتحرك، حاولت

الفتاة لكنها لم تنجح وقد ضغطت على نفسها فأصبح شكل صدرها كرمانتين اكتملتا النمو وتنتظران من يقطفهما، أو كرأسي هرين تعلق نظرهما بالسقف وهما يرقبا كنارياً في قفصه المعلق بالسقف، ولكن لا حول بيدهم ولا قوة. ارتعد صالح من هذا المنظر وبدأت يداه ترتجفان وأحس ذلك الإحساس الذي يحس به دائماً قبل أن يبصق على نفسه ومد يده على صدرها وأمسكه من الداخل (من طرف الجسم) وقام بالضغط قليلاً وهو يرتجف وقال لها:

هذه هي العضلة المسؤولة عن حركة الصدر فإن ضغطها تحرك الصدر. فبدأت الفتاة بمحاولة الضغط من جديد ويدي صالح ما زالت ممسكة بنهديها وهو يختلج، ويتأوه بصوت خافت فقالت الفتاة:

لم أنجح أليس كذلك؟ فقال صالح:

لا أحسست به بدأ يتحرك وبدأ يداعب النهد كله ويهزه بيديه ويقول لها: انظري لقد بدأ يتحرك نعم بدأ يتحرك، كانت القشعريرة قد سيطرت على جسد الفتاة فوضعت رأسها على كتف صالح الذي قام بدوره بإدخال يديه تحت حمالة الصدر وبدأ يتحسس مواقع الجمال لديها وانهال عليها بقبلة كانت كانقضاض الصقر على الحبارى ومددها على الكنبة وتمدد فوقها لثلاثين ثانية أو ربما أكثر بقليل فانتهى الأمر وأصبح لباسه الداخلي لزجاً، نهض عنها، نهضت غطت صدرها، كانت صامتة، لم تنبس ببنت شفة عدلت ملابسها، وإذ بصوت المؤذن ينادي للصلاة، فاغتنم صالح الفرصة ودخل الحمام، وتوضأ كما زعم وأقام الصلاة وهو جنب بفناء المنزل ليتسنى للجميع رؤيته وهو يصلي ليستمروا بالقسم برأسه كما تعودوا.

عاد ودخل الغرفة وقد عادت إليه بعض الروحانية الزائفة بعد

الصلاة الزائفة التي قصمت ظهره من الألم: لقد وقفت بين يدي ربي وأنا نجس، يا الله يا الله أيوجد أنجس مني في هذا الكون؟ كيف تجرأت على فعل هذا؟ البيت مليء بالناس أين ذهبوا تلك اللحظة، لِمَ لم يخرج أحد من الغرفة ويقطع خلوتنا؟ لِمَ يا رب؟ لِمَ؟ اليوم صليت الجمعة وقرأت سورة الكهف والآن أنا نجس ومنافق وحقير.
تمالك نفسه للحظة وتوجه للفتاة بكل هدوء:

أتعرفين يا أختي إن كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، أنا آسف ولكن أنت سمحت لي، وأنت ساعدتني على الذي حصل، والأمر ليس غريباً؛ لأننا أنا وأنت زيت ونار فاستغفري ربك يا أختي وتوبي إلى الله فإن الله غفور رحيم، فأنا تبت لله عز وجل، وأنت يا أختي توبي وسامحيني الله يرضى عليك.

بدأت الشابة بالبكاء وصار صالح يرجوها أن تصمت فصمتت، حاول أن يكمل لها الدرس قالت له:

لم أعد أفهم أي شيء اليوم كفاية وعادوا للغرفة الثانية بعد أن هدأ روعها وكأن شيئاً لم يكن ولم ينس أهل الفتاة شكر صالح واعتذروا منه إن كانوا أتعبوه. غادر الضيوف في ساعة متأخرة نوعاً ما، كان صالح يرغب بالاستحمام لكنه لم يجرؤ على ذلك فماذا سيقول عنه زوج أخته، اليوم كان عند أهله فهذا يعني أنه استحم حماماً نظيفاً، فما معنى أن يستحم ثانية؟ لم يكن يطيق روحه كان يجلس عابساً ويتحجج دائماً بأنه مريض هذا اليوم، اندس بالفراش وهيهات أن يأتي النوم إليه كعادته أعاد شريط الفيديو ليراجع ما حصل. أنا لم أفعل شيئاً، لم أفعل شيئاً ماذا لمست صدرها، قبلتها، لم أقترب منها لم أسبب لها أي أذى، لقد شاطرتني الجريمة ولم تقل أي كلمة، بل كانت مستسلمة تماماً، وقد بدأت هي بالأمر فقد

أعجبها صدري، يا غبي هي طفلة! لا ليست كذلك فأختي الكبيرة تزوجت وهي بالثالثة عشرة وبالخامسة عشرة كان لها طفلان!

يا غبي عند الحكومة هي قاصر! نعم ولكن بالنسبة لي هي كاملة وبالغة وواعية، يا الله ما أحلى ملمسها والله يدها تكفيني، شفتها تكفيني، أصابع قدمها تكفيني، أنا يكفيني أي شيء من الأنثى يا الله كم أنا جائع والجوع كافر، يا ليت أني لم أصبح كافراً! كافر لعنة الله عليك، تصلي وأنت جنب! للضرورة أحكام! أي أحكام الله يخليك؟ قلت للضرورة أحكام! ثانياً أين الشيطان الذي تحدثت عنه وكنت تنتظر قدومه، والله أنا أعتقد أنه بوجودك يشعر الشيطان بقلة حيلته وعجزه، فأنت ما شاء الله تضع الشيطان بجيبك! آه خلص أرجوك خلص لا أريد أن أسمع شيئاً لا أريد أن أسمع وغط في نوم عميق.

كان صالح نائماً وكابوس يجلس فوق صدره، كان يحلم أنه بالقبر وهناك من يعذبه ويضربه بسلاسل من حديد وسياط مكسوة بالشوك، كان يصيح، يصرخ، وصوت تلاوة القرآن لا يفارقه، كان يتقلب يميناً ويساراً وظلام دامس يلفه، كان لا يستطيع أن يرى شيئاً، لكنه كان يحس بألم السلاسل النازلة على جسده، ويسمع بوضوح صوت القرآن، نهض من نومه صارخاً: يا الله يا الله نظر إلى فناء البيت فرأى صهره يصلي الفجر إماماً وأخته تقتدي به، فقال لهما بعد أن أخذ نفساً عميقاً: ليأخذكم الله إلى عنده ويريحني منكم. أشعل سيجارة وجلس ينظر إليهم ويقول بنفسه: ما شاء الله، الله يهديهم. أنهى الزوجان الصلاة فالتفت صهره إليه مبتسماً: قم توضأ وصل واقرأ بعضاً من القرآن يطمئن قلبك فأجاب صالح إن شاء الله، ولكن والله جعلتموني أفقد عقلي، لقد حلمت أني بقبر وأعذب هناك

وصوت القرآن فوق رأسي! فضحك صهره وقال: هذا دليل على عدم رضاك عن نفسك يبدو أنك مقصر بصلواتك. احتج صالح وقال: لا لست مقصراً، على كل عد لنومك فأنا لن أستطيع النوم ونادى على أخته لتعمل له فنجان قهوة.

بدأ صراخ وعويل وجلبة في الشارع، ضجيج عال جداً، صراخ يشق رأس سامعه، ضوضاء جد قوية، فتح صهره باب المنزل وهرعا هو وصالح إلى الشارع. يا إلهي ما هذا دم يسيل بقرب الرصيف جثة مقطوعة الرأس على الرصيف المقابل، رجل قبيح المنظر ممسكاً سكيناً مليئة بالدماء، امرأة سمينة وقصيرة جداً قطعت شعرها ومزقت نصف ملابسها وصمتت وهي تهز رأسها يميناً وشمالاً تحاول الكلام، دون جدوى! مجموعة بنات من الطابق الثاني يصرخن ويلطمن وقد قطعن شعورهن وبان نصف صدورهن، والقبيح ممسك بالسكين وقد أمسكه صالح وصهره وهو يقول: الحمد لله غسلت عاري، غسلت عاري و غسلت عاري! كان منظره أشبه بالثور، ولكن ليس ثوراً نباتياً، بل ثور من نوع فريد ثور لاحم، بل ضبع والله الكلمات لا تستطيع أن تصف هكذا حيوان! لم يكن يتحرك، الثور، بل كان يردد: غسلت عاري وأنا أبو حمدو البيورجي! أنا أبو حمدو البيورجي، شيخ الشباب، ولن أرتاح حتى أذبح ابن الزانية أستاذ المدرسة والله لو ظل من عمري يوم سأذبح هالحقير ابن الحرام، ابن العاهرة. والله لو ظل من عمري يوم سأقطع رقبته كما قطعت رقبة هالكلبة.

حضرت سيارة الشرطة والإسعاف، وضعوا السلاسل بيد البيورجي، وغطوا الجثة ونقلوها إلى سيارة الإسعاف، والسيارة الثانية حملت أم الكلبة كما وصفها أبوها؛ لأنها لم تعد تتكلم، ولم تعد

تستطيع الوقوف فقد انهارت فوق جثة ابنتها . واقتادت الشرطة صالح وصهره ونصف أهل الحارة إلى مخفر الصاخور. كان صالح صامتاً مرتعباً مرتجفاً، لكنه كان يخفي كل شيء كان يفكر بالمنظر الذي رآه عند الفجر، ويحمد الله الذي ستر عليه ليلة البارحة. عادوا للمنزل بعد أن تم أخذ أقوالهم، كانت أخته تبكي: سألها زوجها هل علمت بشيء؟ فأجابته: نعم كان يسكن عندهم مدرساً من اللاذقية بالغرفة الموجودة على السطوح، وقد ضحك على الفتاة (المرحومة) وقال لها : سأتزوجك الصيف القادم، وعندما علم أنها حامل هرب وتركها، والأم أخبرت أباها فقرر أن يذبحها ويغسل عاره والمسكينة لم تقاوم حتى أن أمها هي التي أمسكتها أثناء الذبح.

وغرقت أخت صالح بالبكاء. حتى أن صالحاً بكى معها رغم أنه لم يكن قد رأى الفتاة مرة أو مرتين بالصدفة وعاد ليقول بينه وبين نفسه: الحمد لله الذي ستر علي ليلة البارحة ودخل الحمام بحجة أنه يريد أن يفيق من هذا الفجر الثقيل وهو يحمد الله على الستر ليلة البارحة.

النهار شارف على منتصفه أو ربما إلى ثلثه الأخير، توجه صالح مباشرة إلى غرفته في المدينة الجامعية، اليوم يأتي عبد الله، سأروي له ما حصل، أمعقول هذا؟ الأم تمسك ابنتها ليذبحها أبوها، أيعقل أن تطاوع يد الرجل صاحبها في قطع رأس ابنته التي لم تبلغ السابعة عشرة؟ ألم تر إلى منظره، بدا كجزار وليس كأب، أب لا قل دب، بل قل غول، نعم و الله شكله كان كالغول، كم كان منظره قبيحاً! كم كان قلبه قاسياً، أيوجد عنده قلب؟ هل فيه إحساس! يا الله كم أنا تعب، لقد قلب كياني هذا المنظر لقد قلبني رأساً على عقب. يا رب يكون عبد الله في الغرفة، من المؤكد أني لن أستطيع النوم وحيداً

هذه الليلة. دخل الغرفة لم يجد أثراً لعبد الله، فتح نافذة الغرفة، وبدأ يتأمل مغيب الشمس من الطابق السادس، كان صامتاً كلياً ولكن كعادته، كان جهاز المحاكاة الداخلي ما زال يعمل ويحضر له قصة من هنا وأخرى من هناك، لكن صالحاً كان في قمة اللامبالاة في هذه اللحظة، كأنه قطع التيار الكهربائي عن نفسه، واعتمد على الطاقة الشمسية وقوة الرياح الغربية التي بدأت تهب في كل مساء تذكر باقتراب نهاية الخريف وقرب بداية الشتاء.

لم يأت عبد الله، الوقت تأخر والظلام حل، وظل صالح وحيداً، اندسّ في سريره، تقلب يميناً وشمالاً، أعاد إطفاء المحركات ونجح في النوم دون أن يبصق على نفسه في هذه الليلة.



اللقاء الثاني

مرت عدة أيام وصالح متأثر بما حصل عند العشاء وعند الفجر، كان شوقاً يحمله لتلك الشابة التي استسلمت بين يديه كما استسلمت جارة أخته لأبيها، لكن الفرق شتان فهذه استسلمت لتشعر ببعض المتعة وتلك استسلمت لتخلص مما لحقها من المتعة. والله لا فرق، قال بنفسه، فلو كنت أنا مثل ابن الحرام، أستاذ المدرسة. لكانت هي أيضاً ستستسلم يوماً ما لأبيها ليذبحها، لا ولكني لست ابن حرام فو الله لو أني فعلت شيئاً من هذا القبيل، لسرقت، لفعلت المستحيل كي أستر عليها، نعم أنا ابن حلال ولست ابن حرام، فالرجل يجب أن يكون مسؤولاً عما يفعل، لا أن يفعل ما يفعل بأعراض الناس ومن ثم يولي الأدبار كالأنذال.

بعد هذه المناجاة أحس صالح بأنه رجل من ظهر رجل، صحيح أنه مستعد للسرقة، أو بالأحرى أنه يسرق أحياناً كما حدث معه بالباص وفي بيت أخته، ولكنه في الحالتين يحاول أن يعوض عما سرقه، فأم الجينز لم يرها ليعتذر منها، وضيفة أخته، انهال عليها بالنصائح مباشرة، وماذا فعل هو معها! ماذا فعل؟ مجرد أن داعب نهديها - وكان قصده أن يعلمها كيف تحركهما - ومن ثم استلقى عليها لثلاثين ثانية، نعم ثلاثون ثانية! ماذا خسرت؟ لا شيء حتى أنه لم يلمس عورتها ولم

يحاول، نعم أنا لص شريف قالها بصوت عال وضحك على نفسه، إيه يا رجل من زمان لم تضحك، الله يلعن أبا الببورجي، لقد نكد حياتي، نعم والله جعلني حزيناً، لم أضحك على نفسي، ولم أبصق على نفسي من زمن وقهقه من جديد.

كثر تردده على بيت أخته، علّ وعسى يراها، ولكن في كل مرة يعود والفشل غنيمته. وفي إحدى الزيارات لبيت أخته قالت له أخته: أتعلم بأن راضية (هي الفتاة التي درسها العلوم) مرضت لأسبوع بعد أن ذهبت من عندنا يبدو أن الجرثومة التي كانت معك هربت من عندك وسكنت فيها! هز صالح رأسه ورد: لا والله الدرس الذي شرحته لها كان صعباً جداً! وهي لا تحب مادة العلوم! فرمقته أخته بنظرة غريبة وقالت له: والله لولا أني أعرف كيف رباك أبوك لقلت بأنك عملت شيئاً للفتاة. ضحك صالح ورد عليها: والله لولا أني أعرف بأن لسانك أقصر من حذائي بسنتيمتر واحد لكنت قصصته لك! فأجابته أخته: قل لي بأنك ستصبح مثل الببورجي الجحش. وضحك الاثنان معاً.

لم يشعر صالح أبداً بالملل من الذهاب والإياب إلى بيت أخته وكان كل مرة يلتمس عذراً لم يسأل عنه. والذي جعل له غطاء لحله وترواحه المتزايد أن رفيقه حسان يسكن في نفس الحي و لا يبعد عن بيت أخته إلا شارعين، فكانا يخرجان معاً من الكلية ويتسليان تارة مشياً على الأقدام وتارة بوسائط النقل لحين الوصول. وقد قام صالح بتعريف حسان على زوج أخته وكان الاثنان يعرفان بعضهما أو بالأحرى زوج أخت صالح يعرف الأخ الأكبر لحسان فهما من حارة واحدة كما يقال.

الشوق يغزو نفس صالح، ويتحرق لرؤية راضية، يتحرق لأن يلمس نهدها من جديد، يتحرق لأن يقبلها مرة أخرى، يتحرق لأن

يضمها ويعتليها لثلاثين ثانية أخرى. نعم، ثلاثون ثانية تكفي، ثلاثون ثانية تجعلني أهتز، وأزبد وأرعد، ثلاثون ثانية تهزني كما هزت الثمانية أيام العالم من قبل. كان يجلس في بيت أخته منتظراً شيئاً ما، شيء يدخل الفرحة على قلبه، والبهجة والسرور، والأهم من ذلك المتعة. فقد تذكر كلام رائد بأن لا يحرم نفسه شيئاً، راضية صغيرة، ويبدو أنها أحبته، لقد طاوعته من أول لقاء، وضعت رأسها على صدره، لا على كتفه دليل الانقياد والانصياع التام لما يأمر به، حتى عندما أمسك نهديها لم تحاول أن تبعد يديه، بل استسلمت كاستسلام النعجة للذئب، فالذئب إن خطف نعجة، ركضت بنفس سرعته، مع العلم بأنها راكضة إلى حتفها. هل كانت راضية ذاهبة إلى حتفها؟ نعم فلو كنت مثل الأستاذ ابن الحرام لكانت راضية ذاهبة إلى حتفها كما ذهبت ابنة البيورجي! لكن أنا ممكن أن تسميني ذئب نباتي، نعم بكل سهولة ذئب نباتي، نعم أنا ذئب نباتي أنا وبدأ يرددها عدة مرات وهو يبتسم.

يوم وراء يوم وصالح لا يكاد ينقطع عن بيت أخته ولا ينفك ينتظر: يا أخي والله بالك طويل، تركت كل الطالبات في الجامعة وفي المدينة الجامعية وعلقت بتلك الفتاة القاصر! أي قاصر حبيبي، أصابع يدي رغم طولها لم تحط بكامل نهدها، غشيم أنت، وفي الجامعة ماذا سأفعل، سأقول لإحدى الطالبات تعالي أعلمك كيف تهزين صدرك وتتحكمين بالعضلة، والله أنت مجنون ولا يأتي منك إلا خراب البيوت وقطع الرزق! أتسمي هذا رزقاً يا غبي؟ نعم إنه رزق وإن استمرت علاقتي بها سأحمد ربي بعد كل مرة وأقول: اللهم دمها نعمة واحفظها من الزوال. والله يا صديقي بدأت تنحط وانحطاطك خطير جداً! اغرب عن وجهي لا أريد أن أسمعك ثانية لعنة الله عليك، والله جعلتني أجن وأكلم نفسي.

حسنٌ اسمعني لآخر مرة، اخطبها واعقد عليها فأهلها يحبونك ولن يكلفوك بأشياء كثيرة فالجماعة ميسورون وممكن حتى يساعدوك، ويسكنوك في بيتهم أيضاً وتصبح صهر بيت. قلت: اخرس أين أنا من الخطبة والبطيخ وأنا في السنة الأولى، ثانياً كيف أخطب فتاة سلمتني نفسها؟ الله يلعن نفسك! وشعر صالح بصوت أخته يناديه للعشاء، فنهض وخرج من بيت أخته دون أن ينبس ببنت شفة وتوجه مسرعاً إلى غرفته، إلى عزلته، إلى وحدته.

مر أسبوعان وصالح ما زال ينتظر لقد نسي أم الجينز ونسي أم أحمد وابتعد حتى عن رائد قليلاً، لأن رائداً كما وصفه صالح ناجح مع الفتيات مما أشعر صالح بثقل النفس على رائد في الكلية، فرائد من واحدة لأخرى وصالح علق كل تفكيره وآماله براضية، فراضية راضية وجاهزة، وقد كسر حاجز الخجل بينهما وحتى الخوف ابتعد عنهما. يا الله كل ما أريد أن أراها مرة أخرى، والله أدفع نصف عمري لأراها.

دخل صالح إلى بيت أخته أحس بالفرحة عندما رأى كثيراً من الأحذية بالمر: لابد أنهم أهل راضية، جاء الفرج، نعم الصبر طيب، من يصبر ينال مبتغاه. مسح شعره بيده ونادى بأعلى صوته: يا لله.

يا الله ليسمع الناس الجالسون بأنه وصل، دخل الغرفة سلم على الجميع وصعق من منظر راضية، لقد تغير لباسها بشكل كامل، ووضعت حجاباً رسمياً على رأسها وارتدت مانطو لحد أخمص القدم، لقد بدا وجهها ملائكياً، يشع نوراً. حاول أن يحدق بها، لكنها كانت تضع رأسها أرضاً. جلس والتفت إلى الأم: كيف الحال. بخير كيف عمي أبو راضية؟ الحمد لله بخير، لقد ذهبا هو وصهرك لتعزية بعض الأقارب: جزاهما الله خيراً والتفت إلى راضية: كيف حال العلوم معك؟ الحمد لله أجابت باقتضاب.

كان يتأملها ويتخيلها لبعض الوقت أنها عارية الصدر، كان يفكر أن ينقض عليها كصقر فهو بحاجة لثلاثين ثانية فقط وبعدها يهرب. لكن سيسود وجه أهله وأخته، ستصبح فضيحة وفجأة جاء الفرج على يد أم راضية: صالح الله يرضى عليك يوجد درس رياضيات لم تفهمه راضية ممكن تشرحه لها؟ بكل تأكيد ولكن ليس وهذا الضجيج، فقالت الأم: اذهبا للغرفة الثانية واتركا الباب مفتوح، بصراحة المرة الماضية عمك أبو راضية وبخني كثيراً؛ لأني بعثتكما للغرفة الثانية واقسم بأنه لولا أنك كنت أنت لما سمح بهذا الشيء أن يحصل أبداً، ولكن يعرفك ويعرف أخلاقك ويعرف أباك لذلك اطمأن للوضع.

حسنٌ... قال صالح وذهب للغرفة الثانية ولحقت به راضية. كان صالح بدأ يرتعش وهو يقول بنفسه: اليوم يومك يا صالح، سأجعلها دقيقة هذه المرة فثلاثين ثانية لا تكفي، لا والله دقيقتين أحسن وربما مرتين في المرة الأولى ثلاثين ثانية وفي الثانية خمس دقائق نعم سيكون هذا أمتع، في هذه المرة سأتحسس كل مواضع الجمال لديها من الأعلى إلى الأسفل، لا يوجد رجال في البيت وأختي ثرثارة، سيستر الله علينا، نعم الله ستار سيستر علينا. جلس على الكنبة بنفس المكان السابق فأحضرت راضية كرسياً وجلست مقابلاً له. تعجب صالح من تصرفها وقال لها: لِمَ لم تجلس قربي كالمرة السابقة، تعالي اجلسي قربي فوقتنا قصير وأنا جد مشتاق إليك. لكن راضية لم تحرك ساكناً ولم تتحرك من مكانها. جثا صالح على ركبتيه وهو يحاول أن يضمها من عند ظهرها فنهضت راضية وقالت له: أخي صالح أنا جئت معك لتدرسني ولا لأي شيء آخر فأرجوك إما أن تجلس بأدبك أو أذهب للغرفة الثانية. صالح: لماذا ماذا حصل ماذا غيّرك؟ لقد كنا في المرة الماضية سمن على عسل!

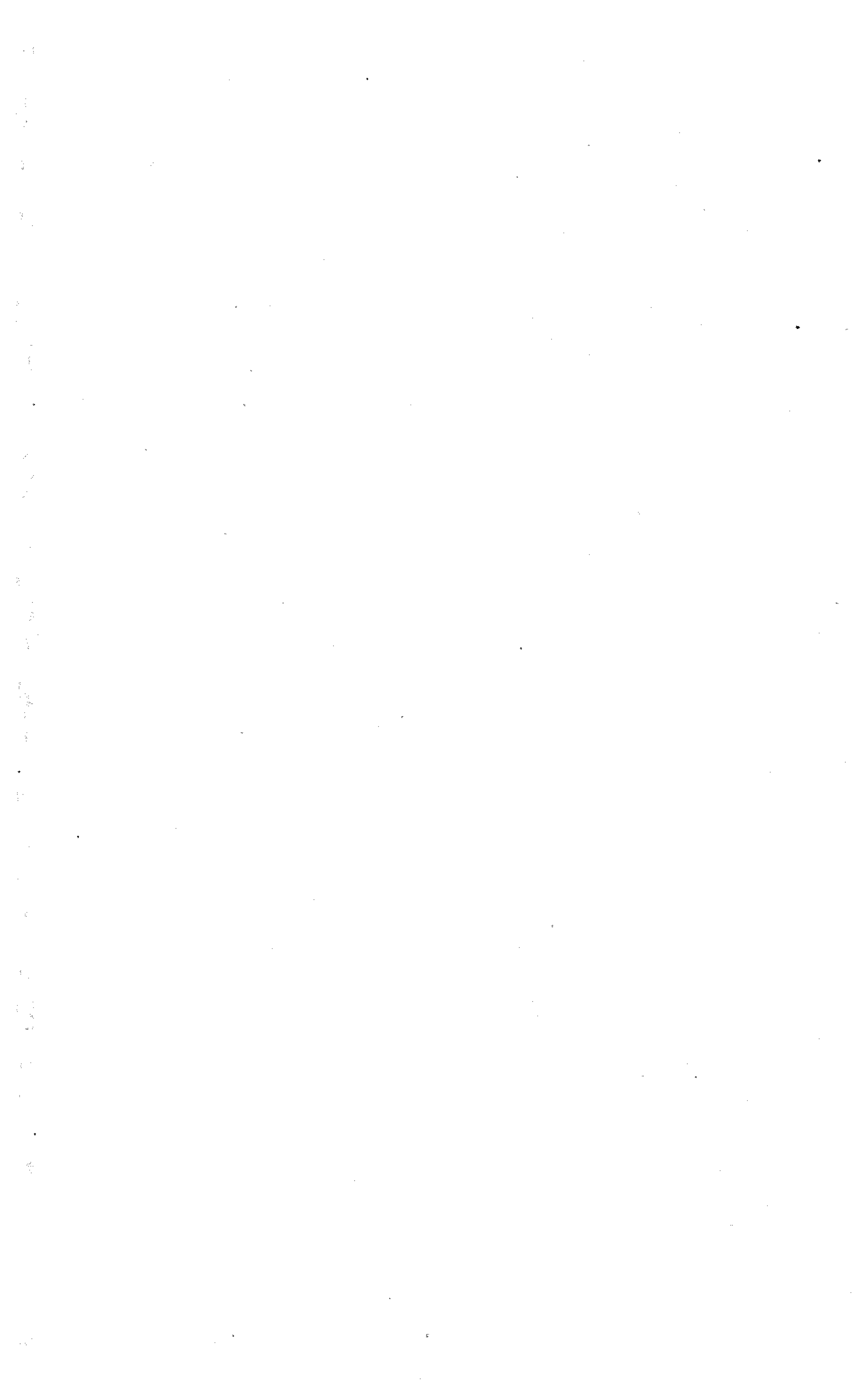
ردت عليه: أنا كنت سأشكرك من كل قلبي على نصائحك في المرة الماضية، لقد جعلتني أرتدي الحجاب والمانطو ولم أفوت وقت صلاة منذ أن نصحتني في المرة الماضية فكيف ستسمح لنفسك بتغيير صورتك الجميلة التي أعقبت صورتك القبيحة، فأنا بكيت جداً في تلك الليالي واستغفرت ربي وعاهدته على عدم تكرار ما حصل وكله بسببك وبسبب كلامك لقد وقع كلامك في قلبي وأيقظ بذرتي الطيبة، فأرجوك حافظ على صورتك الجميلة بنظري.

كانت راضية تتكلم وصالح يشتم نفسه بكل أنواع الشتائم: صرت داعية إسلامياً أليس كذلك؟ لا ناصحاً اجتماعياً حضرتك؟ لا ربما مدرس أخلاق، لعنة الله عليك وعلى فلسفتك، طارت العصفورة من بين يديك وها هي تشكرك من كل قلبها، خذ الشكر واستلقي فوقه، ليس ثلاثين ثانية، بل يوماً كاملاً وانظر ماذا سيفيدك، هل سيحرك بك ساكناً، يا أبا النصائح!. استجمع صالح قواه مرة أخرى وقال لها: لكن أنا أحبك، ولم أستطع نسيان ما حصل بيننا وأتيت ألف مرة إلى بيت أختي كي أراك، أرجوك لا تقسِ عليَّ، وحاول مرة أخرى أن يحضنها وهي واقفة فدفعته وقالت له: إن كنت تحبني فاخطبني أو دعنا إخوة، السلام عليكم وأدارت ظهرها لتخرج من الغرفة، لكن صالحاً جرها من يدها بقوة وقال لها: حسنٌ اجلسي لا تفضحينا... خلص والله خلص الله يلعن أبا العلوم وأبا الرياضيات، و أشعل سيجارة وجلس وجلست بعيدة عنه وهو يقلّب خيبته بعد طول هذا الصبر والحل والترواح.

أشعل سيجارة أخرى... ثم أخرى، وقال في نفسه: ها قد حظيت بعشر دقائق أيها المصلح الاجتماعي، يا حكيم زمانك، يا أيها الداعية الإسلامي، ثم قال لها بصوت عالٍ: اذهبي وقولي لأمك بأنك فهمت

الدرس حتى يستر علينا ربنا، فخرجا من الغرفة سوية ومد رأسه من باب الغرفة وقال لأم راضية: مشي الحال، والسلام عليكم. فتوجهت أم راضية له بالدعاء وخرج من بيت آخته وهو يلعن الساعة التي نصحها بها.

وصل إلى غرفته ضحك على نفسه كثيراً وهو ينتقي ألفاظاً كلها تدل على سعة عقله، ثم قرر أن يمحو هذه اللحظات السوداء من عقله ويعود إلى اللقاء الأول، وما إن تدفق شريط ذكرياته بدت الثلاثين ثانية كثلاثين دقيقة. مارس العادة السرية ونام دون أن يستحم ودون أن يبصق على نفسه.



أميرة

قرر صالح أن يتقرب أكثر وأكثر من رائد، فالشاب صياد ماهر، وظروفه تسمح له بأن يلعب على كيفه، أما أنت يا صالح يا محترم إن فرضنا وقعت بيدك فريسة فأين ستفترسها؟ أي والله سؤال ذكي جداً لم يخطر على بالي من قبل، نعم أين سألتهما! في بيت أختي والله الباص كان أكثر أمناً واطمئناناً من بيت أختي، نعم لابد أن أعود وأصبح أقرب إليه أكثر من حامد، فحامد يعسكر عنده طول الوقت أنا لا أريد منه إلا شيئاً واحداً، إذا أكل أكلت معه، فالخيرات حوله متوفرة وكثيرة، لِمَ أتعبت نفسي مع طفلة! يا أخي قلت لك: ليست طفلة والله العظيم ليست طفلة إنها تعرف كل شيء، حسنٌ... حسنٌ أغلق هذه السيرة رجاء، فما مضى... مضى.

رائد... رائد.... نادى صالح بأعلى صوته عند مدخل الكلية وقد بدا له رائد من بعيد. أهلين ابن البلد، أهلاً وسهلاً وتبادلا القبل وتوجه رائد لصالح بالسؤال: أين كنت مختفياً، ألمحك بالمحاضرة وأفتقدك بعد انتهائها! صالح: أنت يا حبيبي مشغول دائماً، ما شاء الله عليك ما تركت وحادة من شرك عفواً من خيرك؟

رائد: يا رجل الخير كثير والبنات على قفا من يحمل، لكن الأمر يحتاج تكتيك يا حبيب قلبي.

صالح: والله يا رائد تورطتُ بفتاة عمرها 15 سنة وما عدت أنام الليل وأنا أحلم بها.

رائد: أخبرني، هل استعملت الفرشاة؟

صالح: لا والله من الخارج فقط لكن لعبت بالرمان.

رائد: والله تجعلني أشعر بالحزن عليك، يا حبيبي قال الشاعر: إذا طعنت طعنت في لبد وإذا نزعت يكاد ينسد، هكذا يجب أن تفعل. ودخلا معاً إلى القاعة.

جلس صالح بمكانه قرب حسان وجلس رائد قرب فتاة تضع حجاباً أزرق اللون و وجهها أبيض يملؤه النمش، وقد رحبت برائد ترحيباً حاراً، وضربته بيدها على خاصرته. فقال صالح بنفسه: والله الأمور طيبة. قبل دخول المحاضر قال حسان لصالح: أترى ذلك الشاب الجالس على يمينك؟ فقال صالح: العابس دوماً! أجاب حسان: نعم هو العابس دوماً، البارحة حكى لي قصته وأمنني أن لا أحكيها لأحد غريب، أتعرف سبب عبوسه! ممكن خلق هكذا! لا صالح حرام عليك، رد حسان منذ أربع سنوات لا يعلم شيئاً عن أبيه واثنين من إخوته، خرجوا ذات يوم ولم يرجعوا حتى الآن. فهمس صالح بأذن حسان: أهو حموي؟ نعم، أجاب حسان فقال صالح: حسبي الله ونعم الوكيل، حبيبي ما لنا علاقة الله يخليك يا حسان، نريد أن ندرس ونعشق فقط، فقال حسان: أما أنا أريد أن أدرس فقط فالعشق تركته لصاحبك رائد.

انتهت المحاضرة، لحق صالح برائد والفتاة، أثقل صالح من دمه وجلس على نفس الطاولة في مقصف الكلية، كان يحس بأنه قوي الشخصية وأن رائداً من أقاربه وإن الجالسة معهم محرمة عليه؛ لأنها محسوبة على رائد فهذا هو العرف، ولكن فكر ملياً بكلمة رائد عندما عرفه عليها بأنها زوجة المستقبل. بعد انتهاء الدوام تملص صالح من

حسان وتعلق برائد وألح عليه بالذهاب معه إلى السكن الجامعي وأغراه بغداء بيض وطماطم معتبرة. توجّها معاً وكان طول الطريق يحكي صالح عن مغامرته مع راضية وكيف وعظها، ثم ندم على ما قدمت يداه ورائد يردد: على رأسي يا شيخي ويضحكان ويقهقهان بصوت عال.

شعر صالح بعد أن ذهب رائد من عنده بأن رائداً أصبح الصديق الفعلي له وبوجود رائد سيتخلص صالح من عقد وحدته وعقد حبه الأعمى للنساء وللجنس، فالأمور الطبيعية هي الأمور التي يحب أن يتبعها صالح بحياته.

في اليوم الثاني ذهب صالح مع رائد إلى منزله، وبعد أن تناولا الغداء الجاهز الذي اشتراه رائد، دق الباب، فتح رائد فإذا بالفتاة ذات النمش تدخل البيت، اصفرّ صالح، بل احمرّ، تلعثم، لم يعد يدري ماذا يقول، سلمت وأخذها رائد بالأحضان وهو يقبلها ونظر بطرف عينه إلى صالح الذي فهم بأن عليه المغادرة حالاً، قام صامتاً محني الرأس مكسور الخاطر، مرتبك، مرتعش، فتح الباب وخرج وهو يقول بنفسه: لعنة الله على هكذا أميرة (اسم الفتاة) تضع حجاباً وتأتي لعند شاب يسكن وحيداً حتى أنها لم تستحي مني قبلته أمامي فماً لفم، الله يسترنا مما هو أعظم، ولِمَ الحجاب يا بنت الكلب، لِمَ، ستار، غطاء تغطي من فوق وتكشفي من تحت، بس والله يا رائد أنت فحل، أي والله أنت فحل ما مضى شهران وأحضرتها للبيت، الفرشاة ستعمل حتى الصباح، نعم ستدهن أكثر من حسان وضحك.

وصل غرفته، اندس في سريره يا ترى كم مرة أنهى رائد، يا ابن الكلب والله إنه رجل، أكيد أنها تعرت بشكل كامل، نعم، وأكيد تفرجوا على فيلم دعارة وطبقوه عملياً، والله الدنيا حظوظ، أي والله الدنيا

حظوظ، يا ترى أميرة عذراء؟ أم أن رائداً لم يعد يكتفي بالفرشاة، يعني... يعني ماذا يعني ربما أنه ينام معها من الخلف فهناك لا وجود لغشاء البكارة، شعر بتهيج عظيم كانت عيناه مغلقتين وهو يتخيل أميرة عارية ورائد يمارس معها الجنس من الخلف وهي تتأوه، وتناول دون أن ينتبه معجون الأسنان ووضع كمية منه بكفه وداعب بها عضوه الذكري فبدأت النيران تشتعل والحرقة جعلته يثب من سريره وهو يرفع قدم وينزل قدم كراقص فوق الجمر، أراد أن يصرخ من الألم، لم يستطع خوفاً من أن يجتمع عنده الجيران فتح صنبور الماء على قضيبه وبدأ ينفخ بشكل قوي ويحرك بيده بشكيراً علّ مفعول معجون الأسنان يذهب وكان وهو يتألم، يضحك على نفسه ويلعن أبا أميرة.

كان صالح يتشوق لرؤية رائد، كان ينتظره على باب الكلية، لم يأت رائد، لم تأت أميرة، وصالح لم يدخل للقاعة، مرت المحاضرة الأولى، وبدأت المحاضرة الثانية ولم يظهر أحد وصالح لم يحضر المحاضرة الثانية، كان فقط يريد أن يسمع ما حدث بين رائد وأميرة، كانت هناك مئات الأسئلة في رأسه، ويتلهف لطرحها على رائد، وكيف يقول رائد عن أميرة أنها زوجة المستقبل؟ وقد سلمته نفسها، لا رائد كذاب أشر، نعم إنه مجرد أسلوب للوصول.

ترك الكلية وتوجه إلى بيت رائد، دق الباب، لم يفتح أحد، أعاد الكرة، لم يفتح أحد، أين رائد أين اختفى، اقتطع ورقة من دفتره وكتب عليها: (حضرت ولم أجدك الساعة 11 و50 دقيقة، أخوك صالح). ونزل من البناية أين رائد، هل ذبح كابنة الببورجي، لكن أين الجثة، من الممكن أن يكون أخو أميرة يراقبها وبعد أن نزلت انقضّ على شقة رائد وقتلهما معاً، يا ليت أني لم أنزل، كنت سأدافع عن صديقي، وكيف تدافع عن صديقك وهو يهتك أعراض الناس، رائد لم يخطئ، جاءت إلى بيته

ماشية على رجليها وبطوع إرادتها، أأذهب إلى الشرطة وأخبرهم بالحقيقة، وما هي الحقيقة، جريمة زنى، لكن ما أدراك بأنها جريمة زنى، فالزنى يحتاج إلى أربعة شهود، لكن وما أدراك أن هناك جريمة، ممكن أميرة وحيدة ليس لها إخوة، أو أن تكون أكبر واحدة بالعائلة، أو تكون يتيمة، لا ليست يتيمة فشكلها يدل على أنها غنية، طيب ممكن أن تكون دلوعة البابا والماما، والناس متحررين، طيب لِمَ الحجاب، أي والله لِمَ الحجاب، كان يدور حول نفسه كالصياح أمام مدخل بناية رائد، والأسئلة التي لا تحمل أجوبة أكثر بكثير من تلك التي لها أجوبة. ولكن السؤال المهم هو: أين رائد؟!



اختفاء رائد

ظل صالح منتظراً حتى الساعة التاسعة ليلاً، لم يأكل شيئاً، فقط كانت السجائر المتعاقبة هي التي تدخل جوفه، وبدأت تشكل له حرقة غريبة، ومرارة فظيعة في حلقه، ركب الباص وعاد إلى غرفته. ماذا سيفعل؟ من سيخبر، لم يخطر بباله أن يسجل رقم هاتف منزل رائد، ماذا سيفعل تردد هذا السؤال آلاف المرات برأس صالح. في الصباح التالي، استيقظ في السادسة، غسل وجهه، وركب الباص باتجاه منزل رائد، وصل للباب المغلق، ووجد ورقته موجودة مكانها، يعني لم يرجع رائد، توجه للكلية، جلس أمام الباب فربما يرى رائد أو أميرة، لم يظهر أحد لم ير أحد، فوّت على نفسه كل المحاضرات، ولم ير رائداً أو أميرة، لجأ لحسان وأخبره بأن رائداً قد اختفى، ضحك حسان وقال له ببرود: تجده بين فخذي امرأة في بقعة ملعونة من الأرض.

صالح: حسان حرام عليك، إنه صديقنا ولم يقل لي أنه سيسافر، أو سيذهب إلى أي مكان أخاف أنه حدث له شيء! ما رأيك أن نذهب إلى شقته ونكسر الباب ونتأكد أنه ليس مقتولاً هناك؟ حسان: ولماذا يكون مقتولاً؟ أجاب صالح: من يدري... يدري... ومن يدري يقول: كف عدس. حسان: ماذا تقصد؟ يا أخي لا أستطيع الكلام؛ لأني أحب أن أحفظ السر.

حسان: في هذه الحالة اعذرني، فأنا لا أستطيع المساعدة وأنا كأطرش في عرس. حسنٌ... حسن، سأروي لك الحكاية، وقص صالح لحسان ما رآه بأم عينه في بيت رائد، ولذلك هو جد قلق على رائد، ولم ينس أن يجعل حسان يقسم بأن لا يحكي لأحد. هز رأسه حسان وضحك من كل قلبه: صاحبك يعتقد بأنه دونجوان زمانه، يا حبيبي. أميرة فتاة فاسدة، وهذه السنة هي الثالثة بالنسبة لها، وما زالت بالسنة الأولى، ولها أكثر من صاحب، حتى آذن الكلية أبو حمدو، كان له نصيب بها. فقال له صالح: أبو حمدو الأعرج؟ نعم أبو حمدو الأعرج. صعق صالح من هذه المعلومات، وقال لحسان: طيب لِمَ لا ترتدي فستاناً أصفر لنعرفها أنها عمومي؟

ضحك حسان وقال: الله يستر علينا وعلى حريمنا والله هذا الزمان مخيف!

توجه صالح وحسان إلى عند أبي حمدو الأعرج، وطلبا منه كأسين من الشاي وبدأا يستجوبانه بطريقة ذكية ويمدحانه بأنه زير نساء وأنه ضد النار وضد الكسر، فقص لهم أبو حمدو قصة أميرة كاملة (أميرة قالت لي: إن أول رجل فض بكارتها كان زوج أمها، فأمها تزوجت من هذا الرجل بعد وفاة أبيها وهي في الخامسة عشرة من عمرها وتقول: إن أمها كانت في حفلة زفاف وجاء زوج أمها إلى البيت فاغتصبها وهددها بالقتل إن هي فتحت فمها، وظل على علاقة بها طول هذه السنين فكلما غابت أمها عن البيت، انفرد بها ومارس الجنس معها، ولكي تصمت كان يغدق عليها بالنقود والهدايا، ولكن أضاف الأعرج: إنها لم تكن تشعر بالمتعة معه، وأقسمت أنها شعرت بمعنى الجنس أول مرة في حياتها معي، فقاطعه صالح وقال له: معلم أنت صاحب خبرة، واسترسل. لكني السنة الماضية ذهبت للحج وتبت عنها، يا

إخواني والله حرام، وأشار إلى الغرفة الصغيرة التي يجلس بها وقد حولها إلى كافتريا لبيع الشاي والقهوة للمدرسين، والله هذه الغرفة تشهد وهذا الكرسي يشهد على الساعات التي استمتعنا بها سوية، تدخل صالح: أبو حمدو قلت والله حرام ما هو الحرام؟ الحرام أنك لا تعرف متى تموت، فمثلي أنا تبت باكراً عنها، فلو أنني أعرف متى سأموت لكنت استمريت معها لقبل غرغرتي فأتوب عنها وبعدها أموت.

ضحك حسان وصالح ضحكة قوية وقال صالح: والله يا عجوز الجن عم تحكي شعر! رد أبو حمدو: والله الكذب حرام، البنت لذيذة جداً، إي والله البنت لذيذة. وقف حسان وقال لأبي حمدو: والله أنت شايب وعايب. فضحك الجميع وعلق أبو حمدو: والله الحرام طيب يا شباب. توجه صالح وحسان إلى خارج الكلية، فخطرت فكرة على رأس صالح: حسان، ما رأيك أن نسافر إلى الرقة، ونطمئن على رائد!

حسان ليس اليوم، نسافر بعد غد الخميس. الخميس والله الفترة طويلة. لا يا أخي ممكن يرجع رائد. حسن.

افترقا وتوجه صالح إلى غرفته، لم يكن يشتهي الطعام، أعد فنجان قهوة تركي، ووقف على النافذة ينظر تقلبات السماء، الهواء الغربي بدأ يصبح بارداً، وقوياً بعض الشيء، والغيوم بدأت تأتي من بعيد، والأراضي عادت إلى لونها البني الشهي، والخريف صار في ربعه الأخير، لقد مضى أقل من شهرين وبعد شهر وعشرة أيام ستبدأ الامتحانات، ويبدأ البرد من جديد، ويبقى فراشه خالياً من شريك، وتبقى حياة صالح في لهاث متكرر بحثاً عن متعة كاملة مع من خلقه الله للتمتع معه.

مر الأربعاء ببطء شديد حتى إن صالحاً ذهب إلى بيت رائد مرتين، وكان في كل مرة يرى رسالته ما زالت معلقة على الباب وكان

يقرب أنفه من الباب علّه يشتم رائحة كريهة من داخل المنزل إلا أنه لم يشم أي رائحة غير طبيعية، ها هو الخميس قد جاء، أنهى دوام الكلية، لكن حساناً فاجئه بأنه لن يستطيع الذهاب؛ لأنه مرتبط بموعد لإنهاء دهان شقة وتسليمها لصاحبها يوم السبت صباحاً.

افترقا عند دوار الصاخور ووقف صالح ينتظر الباصات المتجهة إلى الرقة، بعد أربع ساعات تقريبا وصل إلى مركز المدينة، كان رائد قد قال له بأن أخاه من أمه يملك صيدلية في مركز المدينة، حصل الصيدلية بسهولة، وسأل عن منزل رائد فتم إرساله لباب المنزل. طرق الباب، ففتحت له الباب شابة ظريفة المنظر، فارعة الرأس، طويلة، ضعيفة، ترتدي جنزاً ضيقاً وقميصاً مقطع الأوصال، ارتبك صالح واعتقد أنه أخطأ العنوان، فهو توقّع في حال فتحت له امرأة أن تكون مرتدية (الزبون) ويكون على ذقنها نقاط زرقاء و امرأة يكون بينها وبين الأنوثة على الأقل مئة كيلو متر؛ لأن المرأة في المناطق الشرقية هي يد عاملة وليست أنثى، أو ربما تكون أنثى لليلة واحدة وبعدها تتحول إلى مفرخة للأولاد ولعاملة نشيطة تفوق النحلة بنشاطها وإهمالها لنفسها.

أهلاً وسهلاً، قالت فاتحة الباب! رد صالح: السلام عليكم، أنا صديق رائد. قاطعته: أنت صالح صح؟ استغرب رائد لقد عرفت اسمه يعني أنه بالعنوان الصحيح. نعم أنا طالح لا لا صالح رائد موجود؟ أجابته بالنفي ودعته للدخول! لا حسن، لكنها أقسمت عليه أن رائداً لن يتأخر وعيب أن يبقى على الباب. أراد التملص من هذا الموقف، لكنها أعادت الحلفان فدخل وجلس في الصالون، فهم يسكنون في الطابق الثاني من مساكن الدرعية التي عمرتها الحكومة.

أحضرت له القهوة وجلست تحتسيها معه، ولم تسكت حتى

للحظة، قدمت له نفسها: أنا زوجة أخي رائد، والعام الماضي كنا أنا ورائد في الثانوية العامة، لكن أخاه أحبني وتزوجني لذلك لم أدرس مثلكم في الجامعة، وأنا لست من الرقة، أنا من طرطوس وأبي يعمل بأمن الدولة بالرقة.

لم يكن صالح قد رأى بعد أخا رائد الملقب بالغضنفر إلا أنه سمع عنه الكثير من رائد عن قوته وشخصيته، ونفوذه. فُتح الباب صاح رائد: ولك أهلاً وسهلاً مئة أهلاً وسهلاً والله شرفت والله عرفت أنك سوف تأتي والله أنك أصيل يا صالح. وأخذه بعناق شديد، ومن ثم توجه إلى رجل كان معه قد تجاوز الأربعين وقال له: هذا أخي الغضنفر الذي كلمتك عنه وهو كبيرنا في الدنيا. صافح الغضنفر صالحاً بحرارة وشد يده بقوة وضغط صالح أيضاً على يد الغضنفر ليريه بأنه ليس ضعيفاً، وأنه قوي كفاية ليصرع أربعة أشخاص من حجمه؛ لأنه حائز على الحزام الأسود في الجودو.

جلس الجميع وكلهم يرحبون بصالح حتى أنه أحس أنه بين أهله وأقاربه، وكان يختلس النظر بين الفينة والأخرى على الغضنفر وزوجته، الغضنفر عيناه واسعتان سوداوان، رأس كبير بدأ الصلع به من النقرة العليا بسبب الشماخ، بشرة سمراء، أنف مدبب كمخلب صقر، ممتلئ البنية ولكن دون أي كرش أو ترهلات شحمية، كان يضع مسدساً على خصره، وقد لاحظ صالح وجود بندقية صيد موضوعة فوق خزانة العرض التي يتوسطها تلفزيون سيرونيكس ملون وتحته جهاز فيديو، ومسجل بسماعات كبيرة، كانت هذه دلائل رخاء المواطن السوري في تلك الأيام.

كان صالح يحاول أن يطرح على نفسه كعادته أسئلة ويجيب عنها إلا أنهم لم يتركوا له فرصة فقد أشبعوه أسئلة متتالية. خرج الغضنفر

من البيت وذهبت زوجته إلى المطبخ وظل صالح ورائد بمفردهما قفز صالح قرب رائد وقال: ماذا حل بك يا رجل تريد السفر، أخبرني والله لم أحضر ولا محاضرة في غيابك، قضيتها على مدخل بنايتك، ولم أنم الليل وأنا أفكر فيك وكنت سأجيء يوم الثلاثاء، ولكن حسان أخّرني على أساس أنه سيأتي معي، لكن المسكين انشغل ولم يستطع القدوم، بالله عليك ماذا حصل بعد أن تركتك أنت وأميرة بالمنزل؟ أشعل رائد سيجارة وقال لصالح: والله راح ألعن أبا أميرة.

صالح: لا تلعنه فالميت لا تجوز عليه إلا الرحمة. رائد: بالله عليك! والله أبوها ميت من أكثر من تسع سنوات أو ربما أكثر! رائد: ما علينا بعد أن ذهبت بدأت حرب اليابان وبقينا نمارس الجنس حتى الساعة السابعة مساء، وبعد أن لبست ثيابها استعداداً للرحيل قالت لي: رائد أنا حامل بالشهر الأول ويجب أن تتزوجني حالاً، وأنا جن جنوني كيف أتزوجها وهي ليست عذراء، ولا أدري كم واحد سبقني إليها ونال منها ما نلته أنا، وكيف حامل وأنا لم أكمل معها شهر واحد فهذا اللقاء الذي حضرته كان اللقاء السادس أو السابع ولم أكن أفرغ بالداخل فكيف تحمل مني؟ وبعدين، تدخّل صالح بلهفة! طردتها من البيت وهددتني بأنها ستحكي لأهلها وسيأتون ليقتلوني أو سيذهبون للشرطة، فخفت وبالليل ركبت وأتيت إلى الرقة فهنا أشعر بالأمان فهنا أقاربي، وأخي من المدعومين وعلاقاته قوية جداً مع رجال الدولة وخاصة بعد أن تزوج، فوالد زوجته هو المسؤول الأول والأخير في المدينة وأي معاملة أو مشكلة يستغرق حلها خمس دقائق.

زاد رائد: هل رأيتها بالكلية بعد ذلك اليوم؟ رد صالح: لا والله أنتما الاثنان اختفيتما معاً، وهذا ما زاد من قلقي عليك، خفت أن يكون حصل لكما مكروه كابنة الببورجي! الببورجي من؟ فذكر صالح رائد

بقصة ابنة البيورجي، فتذكر رائد وقال له: فال الله ولا فالك يا رجل، الله لا يقدر يا رب! رد صالح: جميل أنت تعرف الله والله منذ أن تعرفت عليك لم أسمعك تنطق الشهادة! ضحك رائد: للضرورة أحكام. وضحك الاثنان معاً وصالح يردد: أهلاً أبا أميرة. دخل الغضنفر ومعه أكياس تفوح منها رائحة شوي تفتح الرأس من لذتها وتم ترتيب المائدة على أرض الغرفة وبدأ الجميع الأكل بشراهة خاصة صالح فهو لا يذكر آخر مرة أكل فيها المشاوي.

ما إن انتهى العشاء حتى امتلأ الصالون بأولاد عم رائد وبدأ لعب الورق والضحك والتسلية حتى ساعة متأخرة من الليل. انصرف من انصرف ونام من نام وتفاجأ صالح بأن الغضنفر يسأله عن أميرة بوجود زوجته ووجود رائد، ارتبك صالح من طريقة حكي الغضنفر أمام زوجته وهو يقول: أميرة مفتوحة من زمن كما قال رائد، وهو لم يفتحها هذا المهم، وأنا سأرسله السبت إلى حلب ليكمل الدراسة وإن تعرض له أحد سأحرق حلب فوق رأسه، لو أن البنت عندها أدب وأخلاق ما جاءت إلى بيت شاب يسكن بمفرده.

لاحظ صالح امتعاض زوجة الغضنفر من هذه الجملة وتدخلت بحماسة: ممكن أنها تحبه؟ يحبها وجع، الحمد لله لكل شيء صار هناك مبرر، حتى الدعارة، وتوجّه إلى صالح: ما رأيك أنت يا صالح؟ فكر صالح لثوان محتجاً بسيجارته التي كانت بين شفتيه ليكسب وقت أكثر للتفكير: والله هذا الزمان مخيف واختلطت به الأمور والله يسترنا! إي والله الله يسترنا من الأعظم! أجاب الغضنفر وأكمل: أتعرف يا صالح ثم سكت لفترة وقال: الله يعينكم على صبركم لكن أنا وقبل أن أتزوج، ما كنت أوفر أحداً أبداً، وأنا وصيت رائد أنه لا يحرم نفسه من شيء؛ لأنه عندما يتزوج الشاب يعتبر قد انتهى وخرج خارج اللعبة حتى وإن لعب

يأتي من يجعله يقرف اللعب. فردت زوجته: الله لا يشبعكم نساء أبداً أنت وأخوك يا فجعانين!

وضحك الجميع وأعاد الغضنفر الطلب من صالح إن كان يعرف شيئاً عن أميرة. فحكى لهم صالح كل شيء عن أميرة مثلما سمع القصة من أبي حمدو الأعرج. أذن الفجر، لم يقم للصلاة إلا صالح صلى الفرض، ونام الجميع.

استيقظ صالح ورائد الساعة الواحدة ظهراً، قال صالح بنفسه: راحت صلاة الجمعة، ركوة القهوة التركية الخالية من السكر كانت جاهزة، علب السجائر الفارغة كانت ما زالت تملأ أرض الصالة، جلس الصديقان يحتسيان القهوة وانضمت إليهم زوجة الغضنفر البادي على وجهها أنها استيقظت قبلهم بخمس دقائق، سأل رائد عن الغضنفر فأجاب صالح: أكيد بالجامع اليوم جمعة. فضحك رائد وزوجة أخيه ضحكاً لغاية القهقهة وعلّقت الزوجة: بحياته لم يصل لا السبت ولا الجمعة. لقد ذهب ليحضر الغداء. حضر الغضنفر والغداء. أيضاً مشاوي، شيء لذيذ، غنم بلدي، ولحم طازج إنها من نعم الحياة، قال صالح بنفسه.

وبعد انتهاء الغداء وبينما هم يتناولون الشاي بعد الغداء. دق جرس الباب، ركضت الزوجة الشابة وفتحت الباب، كان صالح يجلس مقابل الباب، رأى أربعة أشخاص بينهم نفس الشخص الذي أوصله لبيت رائد ليلة البارحة. نادت على زوجها رحّب بهم الغضنفر وهو متجه لباب الشقة وطلب منهم الدخول، فدخل ثلاثة أشخاص واحد منهم يبدو بالخمسين من العمر إلا أن ملامحه تثير الاشمئزاز، سواد تحت عينيه، أصلع، إلا من بعض الشعر على أطراف الجمجمة، له كرش تتدلى أمامه قصير القامة، نصف شاربه محلوق، شعر حواجبه كثيف، وأسنانه صفراء اللون ويوجد بينها فتحة كبيرة.

كان منظره مقرفاً بالنسبة لصالح، أما مرافقاه، فكانا في مقتبل العمر يبدو عليهما بعض النعمة، وبعض الموضة، فكل واحد برقبته سلسال من الذهب، وخاتم ذهب بالأصبع الصغير، كانا يرتديان نفس اللبس حتى أن بينهما شبهاً كبيراً، وممكن أن يكونا إخوة، جلس الجميع، ركضت الزوجة للمطبخ وأعدت شراباً بارداً، وقام الغضنفر بتقديمه للضيوف، فقال صاحب الكرش وهو يتناول كأس الشراب: إن شاء الله نشرب شراب الفرح!

فقال الغضنفر: أي فرح؟

قال أبو كرش: فرح رائد وأميرة. وقف الغضنفر، فوقف الجميع، وإذا به يستل مسدسه من خصره، وتوجّه بالكلام لأخيه رائد: هل أنت فتحتها يا رائد: فقال رائد: لا والله العظيم لست أنا، وأنت تعرف من فتحها، فتوجّه الغضنفر إلى أبي كرش: ضع الكأس من يدك وانقلعوا خارج البيت وقسماً بالله إن رأيتكم أو سمعت أنكم أتيتم بأي حركة تجاه أخي والله العظيم لأحرق حلب على رؤوسكم، قواد اخرج يلا بسرعة، أراد أبو كرش أن يتكلم: عيب. اخرس يا قواد أدبوا بناتكم وبعدها تفلسفوا، اخرجوا وفجأة لقم الغضنفر المسدس، وإذا بالضيوف يتراكضون على الدرج، وكان صالح يحاول أن يمسك بالغضنفر، ثم تركه ولحق بالهاربين، فلحق بأبي كرش وهو يفتح سيارته الصغيرة وقال له: أميرة حكت في الجامعة بأن الذي فض بكارتها هو زوج أمها، ومنذ سنتين ليس الآن، فرجاء لا تتورطوا مع هؤلاء الناس فهم عشائر وواصلون.

كان صالح يتكلم مع أبي كرش وهو يلاحظ وجهه الذي اصفرّ عندما سمع بزوج أمها، فعرف أنه هو زوج أمها، وقد قصد صالح توصيل هذه المعلومة ليقينه من أن أبا كرش هو زوج أم أميرة وجاء يبحث

لها ولنفسه عن خلاص، وصل الغضنفر فانطلقت السيارة مسرعة.
ضحك صالح والتفت إلى الغضنفر وقال له: الآن عرفت لماذا يلقبونك بالغضنفر. والله إنك غضنفر عن جد. وأكمل: أتعرف هذا السافل هو زوج أم أميرة وهو أول الفاتحين. وضحكا ولعناه وهما عائدان للمنزل.

الساعة السابعة أوصل الغضنفر رائداً وصالحاً إلى مركز انطلاق الباصات باتجاه حلب وحجز لهما تذكرتين وتودعوا وانطلقوا. مرّ الباص على مفرق مدينة الثورة فحمل صالح الهواء سلامه لأهله فهذه أول مرة يمر بالقرب منهم دون أن يراهم، و لكنه كان بداخله يشعر بالفخر، لقد أنقذ صديقه من مصيبة، ولقد كبر بعين رائد وأخيه وامتنُّوا له كثيراً لقدومه، وكسب وقعتين من المشاوي اللذيذة.

أم حسين

لم يعد صالح ورائد يفترقا وكثيراً ما تناوبا النوم سوياً، والدراسة سوياً، وكان رائد يحب رجاحة عقل صالح، ويعجبه بعض التدين الذي يبدو أحياناً على صالح ويختفي أحياناً. وبدأ يفضله على حامد الذي شعر بأنه استغلالي بعض الشيء، فكل فترة يطلب مفتاح الشقة ويأكل لوحده ولا يدعوا أحداً.

ذهب صالح ورائد إلى كلية الآداب، فالفتيات هناك كثيرات جداً، ومتوفرات أكثر من أي كلية، قابلا حامد في مقصف الكلية وجلسا يشربان الشاي ويتفرجا على نعم الله على الأرض قال حامد: أتعرفون نحن بالأدب الفرنسي قمنا بإحصائية ظريفة، أتعرفون إذا قمنا بتقسيم البنات على الشباب بالسنة الأولى، أتعرفون كم تكون حصة كل شاب؟ لكل شاب أربع فتيات وفخذ! فأجاب صالح ضاحكاً: لولا الفخذ الزائد لكنتم على الشرع الإسلامي وأنتم تدرسون الأدب الفرنسي! وتدخل رائد: أعطوني الأفخاذ، فأجمعهم كل فخذين يشكلان مؤخرة! ضحك الجميع. قال حامد لرائد: تعرفت على واحدة جديدة اسمها أم حسين، أسعارها اقتصادية وجاهزة أربعاً وعشرين ساعة، راح أحتاج الشقة اليوم بعد المغرب.

رائد: والله ما عدت ترى المفتاح أبداً يا كلنا سوى يا ما في أحد أحسن من أحد.

حامد : والله صرت لئيماً يا رائد.

رائد : لئيم، ابن حرام، ما عندي فرق المهم الشراكة حبيبي، أنا وأنت وحبيبي صالح، تريد أهلاً وسهلاً، لا تريد خليك بالحديقة العامة مع أم حسين مثل العشاق.

حامد : ما عندي فلوس أدفع عنك وعن صالح.

رائد : أنا بدفع عني وعن صالح وأنت ادفع عن نفسك.

حامد : الساعة السادسة سأكون أنا وأم حسين بالشقة.

رائد : والله إن جئت دون أم حسين سنغتصبك أنا وصالح.

حامد : ما في داعي للاغتصاب أنا تحت أمركم.

رائد : اتقوه والله أنا لم أجد عضوي بالزبالة لكي ألوثه بك.

وضحك الجميع وافترقوا. بدأ صالح الحلم من جديد، كانت أم أحمد والآن أم حسين ما الفرق؟ المهم أنها أم، يعني أنها أنثى، ويعني أنها تعرف عملها، تعرف أقدم مهنة بالعالم، تبيع الهوى، هل الهوى هو الجنس؟ ما علينا المهم أنها أنثى أي أنها تملك القفل وأنا أملك المفتاح، أي مفتاح يا حبيبي، ممكن أنها مفتوحة من أيام العثمانيين.

وصل الصديقان إلى الشقة الساعة الثانية والنصف، أعد صالح البيض والطماطم بسرعة، وتغدى هو ورائد مع فلفل حار جداً لدرجة أن صالحاً كان يشعر أن اللهب يخرج من أذنيه.

صالح: رائد الغضنفر تزوج هكذا تقليدي أعني ولا عن حب؟

ضحك رائد : والله عن جنس!

صالح: ما فهمت؟

رائد : الغضنفر زير نساء، ويملك سيارة فاخرة ونقود، كان كل يوم من واحدة لواحدة وكان عنده طبع أنه لا يبقى مع الشابة طويلاً، على السريع يغير ويبدل، فأي واحدة بعد أن ينال مراده منها يتركها ويحرق

قلبها ويذهب لغيرها على السريع، حتى تعثر بزوجته، كانت طالبة في الثالث الثانوي، أوصلها عدة مرات إلى المدرسة؛ لأنها تسكن بنفس الحي، وفي إحدى المرات وعند الصباح، لم يذهب بها إلى المدرسة، بل أحضرها إلى المنزل، وظلا معاً لنهاية الدوام وأرجعها إلى البيت لكنها لم ترجع عذراء لقد رجعت وهي امرأة، وكتموا السر لمدة شهرين، والغضنفر قام بخطبتها من أبيها إلا أن أباها رفض بسبب فارق العمر وفارق التحصيل العلمي، فأخي ترك المدرسة وهو في الخامس الابتدائي، والعمر، فهو أكبر منها بعشرين سنة، لكن بعد شهرين فاتتها الدورة الشهرية فظنت أنها حامل فحكت لأمها قصتها مع الغضنفر، بعد يومين فقط وافق أبوها على زواجها حتى أثناء العام الدراسي وأكملت الثانوية من بيت زوجها ونجحت لكن أخي رفض أن تسجل في الجامعة وهي الآن حامل ممكن بالشهر الثالث.

صالح: والله الغضنفر شهم، أخطأ فأصلح غلطه والله تواب.

رائد: والله يا صاحبي ليست شهامة ولا بطيخ، لكنَّ أباها ذو نفوذ بالدولة وأخي علم بأنه سيخسر المعركة، بل ربما سيخسر كل شيء، وزوجته جميلة وصغيرة لكنها ليست من بيئتنا، فهي من الساحل ونحن من الفرات ويوجد خلاف كبير بالعادات والتفكير واللبس، وبكل شيء، أنت رأيتها ترتدي جنزاً ضيقاً وقمصان قصيرة ومفتوحة، والغضنفر ليس لديه مشكلة يسايرها من أجل أهلها وهو يتدبر أموره.

صمت صالح وعاد بأفكاره إلى الصباح المشؤوم عندما رأى الفتاة المذبوحة وقال في نفسه: والله الدنيا حظوظ هالمرحومة لو أن ابن الحرام ستر عليها ألم يكن أفضل للجميع أم أن هذا قدرها والمكتوب على الجبين يجب أن تراه العين والله مسكينة صارت مثل زارع الألغام،

الخطأ الأول هو الأخير. قطع رائد تفكير صالح وقال: أنا أعجب ممن يفضون بكارة الفتيات ثم يعرض حياتها و مستقبلها للخطر، الفتاة تصل للنشوة وهي عذراء، وهذه رحمة من رب العالمين، وإلا كنت رأيت معظم الفتيات بلا غشاء بكارة، والرجل لو أنه يحسبها بشكل صحيح، أممارسة العادة السرية أحسن، أو التحسس بالفراش أو بالمخدة، أم أن تكون معه فتاة من لحم ودم، يقبلها يلعقها يفاخذها فيمتعها ويستمتع بها دون أن يؤذيها، أليس أحسن من العادة السرية، لكن عندنا الشباب يصابون بداء العمى، وداء (الجحشنة) إذا ما اختلى بفتاة فعلى السريع يدخل بالهدف.

صالح: والله يا رائد كلامك ذهب لكن تعرف أن العقل يذهب ببعض المواقف، والرأسين لا يعملان معاً أبداً.

كانا يتناقشان والوقت يمر ويقترب من موعد مجيء حامد مع أم حسين، لم يبق لديهم سجائر فشجع رائد صالح لإحضار سجائر فذهب صالح وهو ينظر إلى الساعة، إنها الخامسة والربع بقي خمس وأربعون دقيقة ويبدأ العرض، نعم أنا جاهز، سأجعل صراخها يصل إلى دوار الصاخور، والله أنت غبي، إن صرخت وسمع الجيران، سيتصلون بالشرطة الأخلاقية وتذهبون فضلات أسماك، لا لن أجعلها تصرخ كثيراً، لكني سأجعلها تتألم فأنا ذكر بكل ما تعني الكلمة حتى أنني ربما أكثر من ذكر، لقد قرأت عن الذكورة وقارنتها بنفسي، أنا ذكر ونصف أو ربما ذكران، وضحك لوحده على قصة ذكرين.

أحضر السجائر وعاد، دق الباب فتح رائد، ذهل صالح!، ثلاثة شباب لا يعرفهم موجودون بالصالة، ورائد وحامد، ولمح خيالاً عبر الزجاج في الغرفة، سلم، لم يفهم شيئاً فقال له رائد: صالح أم حسين بالداخل أنت أول واحد أدخل و لم يعلق صالح أبداً ودخل إلى الحمام و

وخرج بعد أكثر من خمس دقائق، أشعل سيجارة وظل واقفاً. فقال رائد: صالح الدور لك أنت الأول هيا ادخل، فعاد صالح ودخل إلى الحمام وخرج أيضاً بعد أكثر من خمس دقائق وتوجه إلى الغرفة ذات الزجاج المحجر، دخل وأغلق الباب ونظر على السرير، امرأة عارية تماماً من كل شيء، سمينة، يبدو أنها تجاوزت الخامسة والثلاثين، بل إنها ذاهبة للأربعين، مجعدة البطن، لحم ذراعيها قد تهدل، ويبدو أن الزمان أكل عليها وشرب!

قال في نفسه: هل أكتب عليها امرأة لأميزها و ما علينا أكلة وحسبت عليك، كل وأغمض عينيك، خلع حذاءه و سرواله واقترب منها جلس قربها ولم ينبس ببنت شفة، كان فقط ينظر إليها.

فقالت له أم حسين: أهلاً حبيبي بسرعة شوي بدي أخلص عندي شغل كثير، وأشعلت سيجارة واستلقت استلقاء كاملاً وفتحت رجليها. جلس صالح بين فخذيها وبدأ يزأر ويصول ويجول وأم حسين تدخن السيجارة، لم تتأثر، لم تتألم، لم تصرخ، حاول أكثر فأكثر لكن لا حياة لمن تنادي، ارتعش، ارتجف، وهدأ الهدوء العجيب، لقد أنهى وانتهى، لم تتركه حتى يستريح فوقها، دفعته وقالت له: أرسل اللي بعدك. خرج صالح من الغرفة يحمل بنطاله على كتفه وحذاءه بيده شارد العقل، غائب النظرات، سارحاً في الملكوت، فقفز رائد ودخل إلى الغرفة، توجه صالح للحمام، اغتسل، لبس بنطاله وفتح باب الشقة ودون أن يلقي السلام على أحد خرج متوجهاً إلى غرفته في المدينة الجامعية إلى صومعته التي يخلد بها لنفسه ويفعل ما يحلو له دون أن يعكر صفوه أحد. كان كل الطريق يستغفر ربه على ما اقترف من ذنب، لم يستعمل أي وسيلة نقل، بل قرر أن يذهب مشياً على الأقدام معتقداً بأنه بهذه الطريقة يعاقب نفسه الآثمة على ما اقترفت.

في اليوم الثاني، وعند الصباح، عاد إلى قلبه حبه إلى رائد، فلقد كرهه بالليل وهاهو يحبه من جديد عند الصباح، التقيا، كان الاثنان متأخرين عن موعد المحاضرة الأولى وكأنهما اتفقا مسبقاً على ذلك، جلسا بمقصف الكلية.

صالح: من هؤلاء الشباب؟

رائد: أصدقاء حامد، أحضرهم معه ليدفعوا الفاتورة عنه.

صالح: بصراحة تضايقت جداً لما رأيتهم.

رائد: لكن أم حسين كانت معهم وهذا المهم، لكن أنت ماذا حصل لك، والله خفت عليك، استعملت الحمام مرتين قبل أن تدخل على أم حسين!

صالح: بصراحة مارست العادة السرية لأني أعاني من مشكلة، أقذف بسرعة رهيبة، بالباص ولمجرد أني كنت أقف خلف صبية وألامسها، قذفت، وتلك الصغيرة التي حدثتك عنها، استلقيت فوقها وأنا بثيابي وهي بثيابها ثلاثين ثانية فقذفت، فقلت في نفسي: إن مارست العادة السرية مرتين، أستطيع أن أطيل ممارستي مع أم حسين، لكن لا جدوى أنهيت بخمس دقائق، رغم أني لم أشعر بأي احتكاك وكأني كنت أضرب في فراغ وليس كشاعرك الذي كان يطعن في لبد.

رائد: حبيبي هذه عاهرة مستهلكة منذ الحرب العالمية الثانية، حتى أنك تستطيع إدخال قدمك ولن يكون عندها مشكلة، المهم أنا وفيت بوعدي وأنت يا صالح لم تعد بكراً، وضحك رائد وأردف: عندما دخلت لعند العاهرة قالت لي، لا تكن مثل الحمار الذي سبقك، كان يخبط بقوة شديدة وقد آلمني.

شعر صالح بالفخر وقال في نفسه: لقد قاومت بنت الكلب، ولم

يبد عليها شيئاً ولكنها اعترفت بأني آلمتها وتركت أثراً بها، نعم أنا سوبر مان، ولكن لِمَ قالت عني حمار؟

والتفت إلى رائد وقال له: بنت الكلب قالت عني حمار!

رائد: أي والله لكن أنا دافعت عنك وقلت لها أنك غشيم ويكر ولا تعرف بعد أصول الجماع!

صالح: لا أنا أعرف لِمَ قالت عني حمار!

رائد: لِمَ...؟

صالح: لا... لا ولا شي أنا أعرف لماذا وصفتني بهذا الوصف.

فضحك رائد وقال: الظاهر أنك مغتر برجولتك مثل الحمار عن جد، حبيبي كل الناس مثل بعض لا تعمل نفسك زورو أبو مسدسين.

ضحك صالح وقال: لا أنا عبارة عن ذكرين. فعلق رائد: ممكن من الصين. وضحك الشباب حتى التفت لهم كل من بالمقصف. توجّها للمحاضرة وإذ بصوت ينادي: صالح... صالح التفت وراءه وإذ أبو حمدو الأعرج يؤشر له ليأتي لعنده.

صالح: رائد هذا شريكك بأميرة، الزم الصمت، سنرى ما يريد؟

وصل عند غرفته المحولة إلى كافتيريا.

صالح: أهلاً بالمعلم ويمحطم قلوب العذارى.

أبو حمدو الأعرج: ها سمعت شي عن أميرة؟

صالح: لا والله وأنا أريد أن أراها عسى أن يكون لنا بالطيب نصيب.

أبو حمدو: تزوجت قبل يومين من شخص أعرج مثلي، قلت لك بأنها لم تستمتع إلا معي لذلك تزوجت من أعرج علّ وعسى أن يكون مثلي و لكن هيهات أنا أبو حمدو مالي مثيل.

صالح: الله يستر عليها وعلى بنات أمة محمد.

أبو حمدو: حبيبي هذا زوج أمها اشترى لها العريس لكي يخلص منها؛ لأن العريس يعمل في مصنع زوج أمها.

صالح: والله يا عجوز الجن لن تشم ريح الجنة حتى وإن حججت خمسين مرة، خلص الله يستر عليها وعلى بنات أمة محمد.

أبو حمدو: ولماذا انفعلت كل هذا الانفعال هل هي قريبتك؟

صالح: لا ليست قريبتي لكن الله أمر بالستر، خلص أبو حمدو ادع لها بالستر.

أبو حمدو: لو أني أعرف أنها ستتزوج أعرج ويقبض فوقها نقود لكنت أنا تزوجتها فأنا أولى منه.

صالح: نصيبك في جهنم عفواً بالجنة يلا سلام. وانطلقا هو ورائد وصالح يقول لرائد:

هل مر عليك مثل ابن الحرام هذا؟

رائد: لا والله لكن تعرف يا صالح أعجبتني جداً، تزني بالليل وتصبح شيخاً بالنهار، والله غريبة قدرتك على التأقلم مع كل التيارات، أي والله غريب أمرك يا صالح.

صالح: أنا والله لولا انصياعي لأمر السيد الصغير لكنت من الصالحين لكن القطعة التي تجعلني أرتجف رغم طولي وعرضي وقوتي تمسك بناصيتي وتقودني دون وعي والله يسترنا.

توقفا أمام القاعة وانضم لهما حسان، وكان قد سمع كلمة الله يسترنا من صالح فقال:

خير إن شاء الله ماذا فعلت ليسترك الله؟

رد صالح: ما في غيرها العادة السرية وادع الله أن يتوب علينا ويسترنا، هل الدعاء حرام؟

حسان: لا والله الدعاء ليس حراماً لكن العادة السرية حرام.

صالح: لا يا شيخ وأنت ألا تمارس العادة السرية؟

حسان: لا والحمد لله وكل فترة أحتلم وأنا نائم والنائم ليس عليه إثم.

صالح: والله أنت لست رجلاً!

حسان ضاحكاً: التجربة أكبر برهان.

صالح: لا عمي ابعد عن الشر وغن له وضحك الشباب ودخلوا للقاعة وجلس الثلاثة هذه المرة على نفس المقعد. بعد انتهاء المحاضرات قرر صالح التوجه إلى بيت أخته، أحس بشوق لها، أراد أن يشعر أو يستعيد بعضاً من عفته بزيارة أخته التي تحلف برأسه وتمدح به أمام كل الناس، رافق حسان بعد أن ودع رائد. دخل البيت، أعدت أخته له الغداء بعد أن عاتبته ووبخته لعدم مجيئه لعندهم.

كان يأكل الفاصولياء البيضاء والرز وكأنه قادم من بلاد الجوع، وأخته تسرد عليه أخبار أقاربه ووصلت إلى سيرة راضية وقالت: لقد خطبت راضية الخميس الماضي، وحضرنا الحفلة، كانت مثل قمر ليلة الرابعة عشرة من الشهر، سبحان الذي خلقها ما أجملها، والله يا صالح أم راضية كانت تخطط عليك، وراضية أيضاً كانت ميالة لك خاصة بعد أن درستها العلوم و لكني أنا قطعت بنصيبك، قلت لها: إن دربه طويل، والحال تعبان و تعرف كانت أم راضية مستعدة أن تسكنك عندها في البيت، لكن قلت لها: صالح لا يقبل، صالح عزيز النفس لا يسكن عند أهل زوجته، نعم قطعت عليها كل الطرق، فالوقت باكر على زواجك، ما زلت تبكي على الخبز! وضحكت، فتناولها صالح بفحل بصل على رأسها وضحكوا من داخل قلوبهم.

شبع صالح أخيراً، وبدأ يحتسي الشاي ويدخن ويفكر بكلام أخته، لو أنه تزوج راضية وسكن في بيت أهلها ما الشيء المعيب؟ وأكمل

دراسته وعمل بالصيف، ما المشكلة؟ الأكل والشرب! الكلاب لا تشكوا من قلة الأكل والشرب! أم عقلية الناس التي تعرقل كل ميسر وتدمر كل معمر، فعلاً لو أنه تزوجها ألم يكن أستر له ولفرجه؟ أليس خيراً من أن يتحمل جميل رائد ويغوص في متاهات أم حسين ويغضب الله ويدنس نفسه؟ لكن الناس لا يرحمون ويتضايقون إن نزلت رحمة الله على عبد معين، فيبدؤون بالبحث الدقيق عن أبسط العيوب، ويجعلون من الحبة قبة ويشعلون الفتن وهم قاصدون.

نعم هكذا هم أقاربنا، بل هكذا هم سكان الوطن العربي، نعم هكذا هم سكان الوطن العربي يحبون النميمة ويفرحون بالفتنة لكن أحلى شيء أنهم بعد ذلك يا حرام يندمون! قهقه صالح وقال: كان يجب أن أصبح شاعراً، أو كاتباً للسجع والتفت لأخته: ما أخبار الجزار الببورجي؟ في السجن وقد لحقه ابنه.

صالح: ابنه لماذا؟

بعد الحادثة بشهر غاب عن البيت وانقطعت أخباره حتى من يومين جاء خبر لأهله بأن ابنهم محبوس في اللاذقية؛ لأنه قتل الأستاذ الذي اعتدى على أخته في قريته وأمام منزله فقد طعنه ثلاث طعنات قاتلة وهرب من القرية وسلم نفسه للمخفر في اللاذقية.

صالح: والله فحل وقال بأعلى صوته:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فردت أخته: والله كل ما حصل حرام، لكن الحق كله على أم المرحومة لو أنها سترت على ابنتها، وهددت الأستاذ ليتزوجها لما حصل الذي حصل لكن المكتوب على الجبين يجب أن تراه العين.

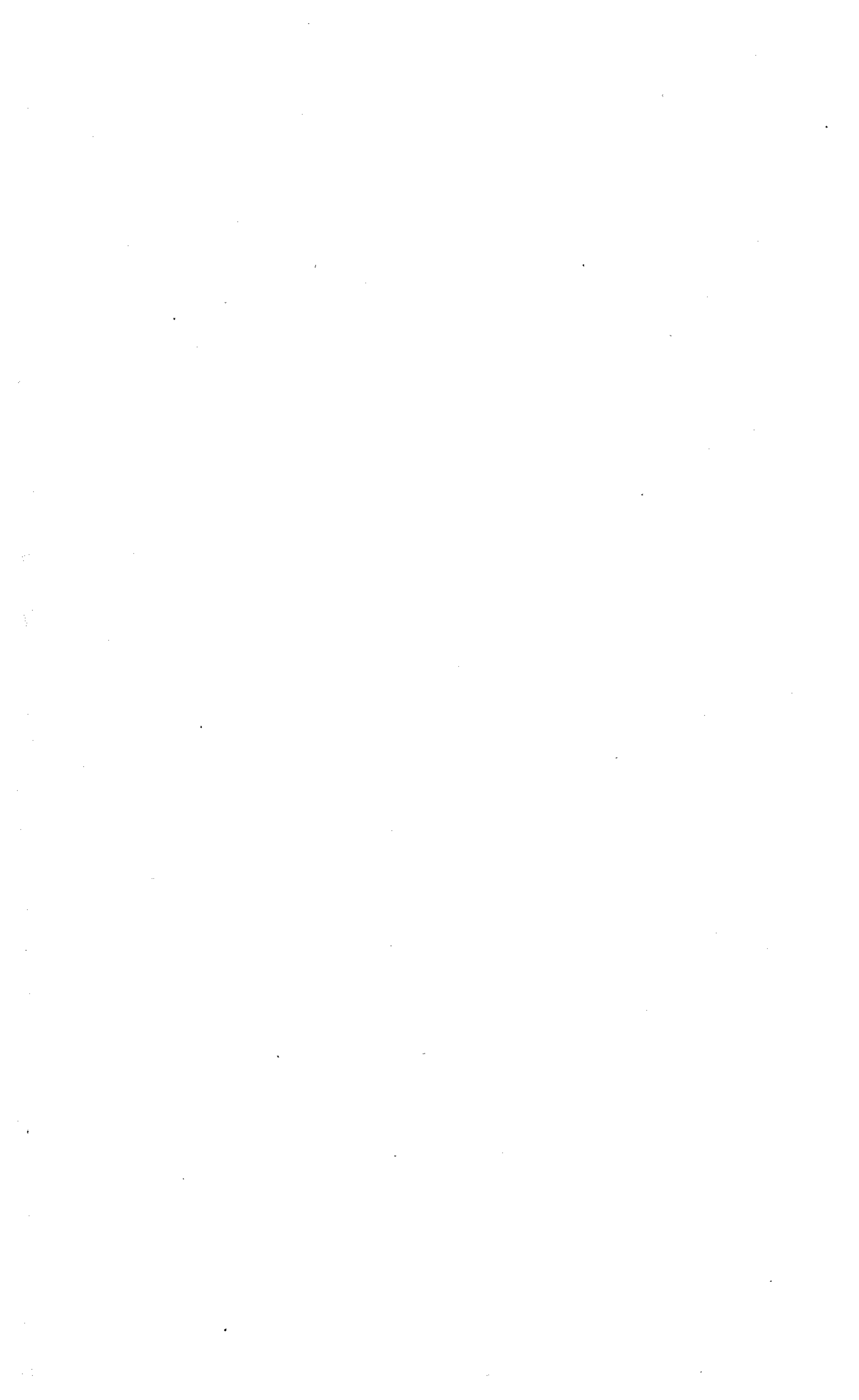
هز صالح رأسه وهو يخرج الدخان من رئتيه: إي والله يا أختي المكتوب على الجبين يجب أن تراه العين، والأم ما أخبارها؟ الأم أصابها

الهبل، تحكي مع نفسها تشد شعرها، تقبل الرصيف، وتنام الليل كله على الرصيف، لا تفهم لا تعي شيئاً حتى أنها أحياناً تتبول على نفسها، لكنها رغم كل هذا الهبل لا تترك البنات يقفن على باب البيت أو حتى يخرجن منه، سبحان الله!

صالح: حسبي الله ونعم الوكيل الله يجبر مصيبتهم، صحيح الولد كم عمره؟

عمره سبعة عشر عاماً لم يستلم دفتر الخدمة العسكرية بعد!

صالح: لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون. وخلد الاثنان إلى صمت لبرهة وصالح يفكر ويقول: اللهم لا تمتحنا، وأخزِ شيطاننا، وابعد أولاد الحرام عنا. ثم صمت وقال: يبدو أن هذه الدعوة قد أصابت حامداً. وتبسم.



ظهور الشيطان

استيقظ صالح على صوت أخته وهي تنهره بقوة وعنف، لم ينم جيداً كعادته عندما يبيت الليل في بيت أخته، فصوت الماء المسكوب بالحمام يلعب برأسه كما الكافين المركز و ويجعله أرقاً، متوتراً، وحتى غيوراً، ويصبح رأسه مركزاً قطبياً لألف فكرة وفكرة، جلس في الفراش كسولاً متثائباً ينظر إلى أخته نظرة الأسد المجروح لقاتله:

من قال لك أيقظيني؟

الجامعة يا حبيبي عندك دوام، لا تتكاسل فأنت مهندس العائلة!

صالح: والله أول شيء سأطبق عليه علم الهندسة هو لسانك. سأقصه من الأطراف، وأزرع به صباراً علّه يقف عن الحركة والكلام، انقلعي وأحضري القهوة المرة مثل نومي عندكم. تذكر أنه اليوم خميس. وأنه على بعد خمسمئة متر منه تمر الباصات المتجهة إلى مدينة الثورة والرقة ودير الزور.

وصل الطبقة قبل موعده بكثير ففي كل مرة كان يتحرك من حلب بعد الثالثة عصراً أما هذه المرة فوصل عند الثالثة عصراً مر على بائع الحلويات صديق والده وحمل معه كيلو غراماً من الكنافة الناعمة التي يحبها أبوه وطلب من البائع أن يسجلها على حساب الوالد، توجه لبيت أهله في حارة المسحراتي، وكله شوق وحنين، فقد ثقل رأسه بعد أن فقد

عذريته، وأحس بأن جبلاً يجثم على صدره وأنه لم يعد صالحاً، صالح الذي يحلف الناس برأسه، لا يفيد البصق على النفس، ولا يفيد إلا التوبة النصوح الصادقة والاستغفار، والله غفور رحيم، فأعلن صالح توبته وهو ماشٍ في الشارع العريض، وصل إلى منزل الوالد كان بيتاً قروياً يقع بممر ضيق مؤلف من طابق أرضي فقط ويتكون من غرفتين ويوجد للغرفة الرئيسية شباك يطل على الزقاق لكنه عال كي لا يستطيع احد سرق النظر.

فخطر على بال صالح وهو ينظر للساعة، أن أمه وحيدة في المنزل فأبوه لم يكن يأتي للبيت إلا الساعة الرابعة عصراً لأنه كان آخر من ينزل من باص شركته التي تهتم باستصلاح الأراضي، رفع نفسه عالياً بعد أن وضع قطعة قرميد تحت قدميه، ومد نظره إلى داخل الغرفة، فصعق، أراد أن يصيح لكنه أخفى صيحته بكل ما أوتي من قوة، كان والده باللباس الداخلي الأبيض، وأمه بفستان قطني مورد وهما يتبادلان قبلة طويلة من الفم، نزل صالح عن قطعة القرميد وتسمر بمكانه وكأن الطير وقع على رأسه: حتى أنت يا أمي! نعم... حتى أمك أيها المعاق، فكيف أتيت أنت وإخوتك! لكن أمي! والله عجيب أمرك، أو تعتقد أن أمك مريم العذراء، طبعاً حتى أمك فهي إنسانة ومن الثدييات ألم تقرأ عن الثدييات، اخرس أرجوك اخرس، ماذا أفعل الآن... ماذا أفعل الآن...

أأدخل وأعكر مزاج أبي؟ لمَ لا تقول بأنك ستعكر مزاج أمك؟ أمي لا... لا أنا واثق أنها تسايره، وأنا واثق من أنها هي التي أغرته! قلت: اصمت لو سمحت اصمت، حسن سأتمشى قليلاً، هيا... لكن ماذا تقول لمن رآك تدخل الزقاق إذا رآك مرة أخرى وأنت ما زلت تحمل الكنافة، والكل يعلم أن أباك وأمك بالبيت، ستقول لهم: عندنا مقطع غرامي، أو

ماذا، خلص اقرع الباب، ناد بصوت عال سيفتحون لك و لن يتركوك بالشارع لا تخف، وتظاهر أنك وصلت الآن وأن شيئاً لم يكن! دق صالح باب البيت وهو يصيح: يا أهل الدار... يا أهل الدار طلوا الحبايب. أهلاً وسهلاً يا ألف أهلاً وسهلاً ردت عليه أمه، وفتحت له الباب، حضنها صالح وشدها إلى صدره بقوة غريبة وقبل يديها عدة مرات ونزل ليقبل قدميها فاستحلفته أن لا يفعل، ودخل إلى الغرفة، قبّل يدي والده ووضع الحلويات فقال والده:

جاءت بوقتها هذه الكنافة.

رد صالح: وأنا؟

بابا أنت شمعة البيت وفرحة البيت، أي وقت أنت صاحب البيت.

شعر صالح بتأنيب الضمير لبرودة سلامه على أبيه وقام من جديد و قبّل يديه ورأسه وقال له:

الله يعطيك الصحة والعافية.

فقال أبوه: الله يعافي قلبك، لكن يا بني دوام الحال من المحال، الله يجعلها على الإيمان، رسول الله قال: (أعمار أمتي بين الستين والسبعين) وأنا بعد ثلاث سنوات أدخل في الستين، وهذا يعني أني بدأت بالعد التنازلي المتسارع.

فقال صالح: الله يطول عمرك ويديمك فوق رأسنا.

رد أبوه: أتريدني أن أصبح مثل صاحبنا: إلى الأبد إلى الأبد، ألا يعرف بأن الدنيا لو دامت لأحد ما وصلت إليه. جاء وقت النوم فوضعت أمه له فراشاً بنفس الغرفة؛ لأن الغرفة الثانية لم تكن جاهزة، كان لأمه فراش، ولأبيه فراش على نفس الصف بالطول، أما فراش صالح فكان تحت فراشهم بالعرض، خمس دقائق ويبدأ والداه يتناوبان المعزوفات الموسيقية دو قرار دو جواب، نظر صالح إليهما وحفلة الشخير مستمرة،

وبدأ يتساءل أئن كان هو بوضع غرامي هل سيقطع متعته ويفتح لأبيه؟ أم لو كانت أخته مع زوجها هل ستفتح لأحد وتقطع اللحظات الغرامية، ثم عاد لنفسه سبحان الله الحياة كلها ذكر و أنثى أبي وأمي، أختي وزوجها، آدم وحواء ثم غط بالنوم وهو يحلم بنصفه الثاني، لكن عندما استيقظ في الصباح وجد نفسه نائماً في فراش أمه. بعد صلاة الجمعة وسورة الكهف، ألح عليه والده أن يسافر بالقطار بدلاً من الباص لأن الجو تغير، وبدأ الضباب، والأمطار، وكثرت الحوادث على الطريق العام بسبب الجرارات الزراعية التي تمشي دون إضاءة وبسرعة بطيئة جداً.

ودع أهله وذهب إلى محطة القطار، جلس في الكرسي المخصص له، وكان مقابله شاب يعرفه، تذكره صالح مباشرة، كان معه بالمدرسة، لكن بالقسم الأدبي، وتذكر أيضاً أنه لم يكن يرتح لتصرفاته، فوالده من أهل النفوذ، وكانت سيارة حكومية تحضره للمدرسة وترجعه كل يوم، بينما صالح كان يمشي خمسة كيلو مترات ذهاباً ومثلها إياباً تحت البرد والمطر، أو تحت الحر ليصل للمدرسة. سلم عليه سلاماً ليس حاراً، لكن المدلل أحاطه بذراعيه وقبله عدة مرات ورحب به كأنه صديقه العزيز الذي لم يره منذ زمن بعيد. انطلق القطار بعد أن تأخر ساعة كاملة عن موعده، الشمس غابت، وبدأ صالح يسأل المدلل:

ماذا تدرس الآن؟

المدلل: الحقوق، لقد أصر والدي أن أدرس الحقوق وبعدها أتطوع في سلك الشرطة وأصبح مديراً لناحية ومستقبلاً قائد شرطة بمحافظة ما.

صالح: والله جميل أنك خططت لكل شيء.

المدلل: لست أنا، بل والدي.

صالح: وأين تنام بحلب؟

بالمدينة الجامعية!

في أي وحدة؟

بالتاسعة.

من شريكك في السكن؟

شاب من الطبقة أعني يسكن بالطبقة لكن لا يأتي؛ لأنه يدرس الأدب العربي، وهو الآن منشغل بالتدريس. صمت صالح لفترة وبدأ يتأمل أيهم (المدلل) كان هادئاً، يعرف ما يريد، أحس به حياء غريباً، ونعومة غريبة، حليق الشارب، ناعم الذقن، أسمر اللون، قصير القامة، ضعيف الخصر عريض الورك و ممتلئ الفخذين، هل كان يقود دراجة عادية لمسافات طويلة؟ ربما! ثم توجه له بسؤال:

هل عندك دراجة عادية؟

فرد أيهم: نعم لكن أخي يستعملها أكثر مني. حاول صالح أن يغفى لبعض الوقت، كذلك فعل أيهم. وبلا شعور نظر صالح إلى النصف السفلي لأيهم، فتخيل أم الجينز سبحان الله لو أنك أجلست أيهم وأم الجينز وأخفيت قسمهما العلوي لتعذر عليك التمييز بينهما. استغفر الله ودعا أيهم إلى بوفيه القطار، شربوا الشاي ودخنوا وكان أيهم يلفت نظر صالح إلى كل فتاة تمر ويضحك، ثم قال لصالح:

مرة رأيتك تسبح بالمسبح الروسي أتذكر؟

أجاب صالح: كنا دائماً نقفز من فوق السور ونسبح هناك.

أيهم: في يومها أحببت عضلاتك، وحاولت أن أتمرن لكني لم أثابر على الأمر، حتى أختي عيرتني وقالت لي: انظر إلى جسمه.

فقال صالح: اللهم لا حسد اللهم لا حسد.

فرد أيهم: عمي لا تخف فأعيننا ليست زرقاء، ولا نملك فرقة بين أسناننا فضحك الاثنان معاً. وبدأ صالح يعزف مقطوعة جديدة

برأسه: هذا يعني أن أخته معجبة بي، نعم ومعجبة بجسمي حصراً. نعم، أي معجبة حيوانية، نعم لكن اختر ألفاظك، يعني لا يهمها إن كنت فظاً أو ناعماً أو كنت غبياً أو ذكياً أو كنت كيفما أكون، هي تريد جسدي و أنا أريد جسدها يعني واحد وواحد اثنان، يعني يجب أن أصاحب أيهم لكي يعرفني على أخته! أنت عيني الآن بدأت تفكر تفكير محترفين، لكن... صالح في الأمس تبت! نتوب مرة أخرى ما المشكلة في ذلك! عقد العزم، يجب أن يصاحب أيهم، لديه أخت معجبة به، أبوه ذو نفوذ، وهو سيصبح ذا نفوذ، الغضنفر ليس أذكى مني، على الأقل هذا صاحبي وليس زوجتي. نزلا من القطار تمشيا إلى المنشية عبر العزيزية وهما يخترعان أوصاف لكل مؤخرة يروها ويحلمون بها، اشترى صالح لأيهم شاورما وذهبا لموقف باص المدينة الجامعية.

يا إلهي نفس الزحام، نفس الجينزات، نفس المؤخرات لكن الفرق الوحيد هو الجو فالبرد بدأ يزيد في الليل، قال صالح لأيهم:

اسمع لا تقف أمامي، بل قف خلفي أو على يميني.

أيهم: لماذا؟

صالح: سترى سأتلذذ بواحدة لحين وصولنا للسكن الجامعي.

أيهم: وأنا؟

صالح: الله يبعث لك من يستمتع فيك وضحك صالح. أيهم: بمد طويل لاسم صالح وكأنه يتدلل عليه: صللوحة قل لي ماذا أفعل؟

صالح: يا حبيبي الأمر ليس كيمياء تختار مؤخرة جميلة وتقف خلفها، وتستمتع بها لحين الوصول يعني طبق المثل الشعبي لا يوجد لحم فعليك بالمرق، ضحك أيهم وقال:

صرت أخاف على نفسي منك يا صالح. فرد صالح:

إي والله أنا مخيف ها ها وصرخ بوجه أيهم مازحاً.

وصل الباص وبدأت رحلة الصعود وكتصرف خبير صعد صالح وحجز العمود بطريقة ذكية جداً، وما إن شارف الباص على الاختناق من الركاب ابتعد صالح عن العمود بعد أن رأى فتاة طويلة ومليئة الجسم، فبذكائه يجب أن يختار حجم الضحية فهو طويل القامة ويجب للضحية أن تتماشى مع قياسه لتكون عملية الالتحام مناسبة جداً. أمن صالح على فريسته، وعاد شهرين ونصف إلى الوراء عندما جرب هذه المتعة للمرة الأولى، كان أيمن يقف إلى جانبه وكان لقصر قامته ينظر للأسفل لعله يرى عملية الالتحام المفترضة.

بدأ صالح يكلم أيهم ويشكو من ازدحام وسائل النقل وهو ملتصق تماماً بفريسته، بدأ يحس بأنه دخل في أعراض التزاوج وكان يرتكز على ساقه اليمين لفترة قصيرة ويريح اليسار ليكسب حركة، تكسبه احتكاكاً أكثر ولا ينفك يكلم أيهم عن نهر الفرات وعن تعب السفر، وأيهم ينظر للأسفل فاقترب أيهم من صالح وقال له: ممكن تعطيني أجرب قليلاً؟ رد صالح: ذكرتني بحمارة جدي، كنا نركبها بالدور وضحك الاثنان. حرارة صالح ارتفعت، والعرق بدأ يتصبب منه، واقترب من الرعشة التي يبحث عنها، لكنه لم يوفق هذه المرة كان الأمر يمر بسلام، والفتاة كسابقتها لم تحرك ساكناً، حتى أنها لم تعر أي اهتمام لما يتعرض له قسمها الخلفي، وصالح ما زال يرتعش، كان بحاجة فقط لحركة قوية بعض الشيء ليرتاح، لكنه شعر بالخوف من عمل مثل هذه الحركة، فاكتفى بما يحصل عليه دون إثارة مشاكل.

نزلت الفريسة السليمة وأكمل صالح وأيهم للموقف الأخير. نزلا من الباص وكانت آثار التعرق بادية على صالح وأيهم يرمقه بنظرات استحال على صالح تفسيرها، جلس صالح على الرصيف، فقام أيهم بمسح العرق من على جبين صالح وقال له: أخاف أن يلفحك الهواء

وتمرض، شعر صالح باهتمام أيهم به لكنه لم يعر الموضوع أي قيمة، أشعل سيجارة ونفخ الدخان للأعلى وسأله أيهم: خلصت؟

رد صالح: لا في المرة الماضية خلصت بس هذه المرة لم أفلح كنت بحاجة لوقت أكثر!

أيهم: يلا أحسن.

ودخلا المدينة وطلب أيهم من صالح أن ينام عنده إذا لم يكن لديه مانع أو أن ينام صالح عنده؛ لأن الاثنين وحيدين لكن صالحاً رفض النوم عنده فذهب أيهم معه إلى الغرفة. كانت الغرفة دافئة فالتدفئة المركزية تعمل من العصر حتى منتصف الليل. تناقشا بعدة مواضيع وأهمها الفتيات، وبدأ صالح بطريقة ذكية يستدرج أيهم ليعرف صفات أخته المعجبة به، ومن خلال الكلام عرف أنها في السنة الثانية في المعهد المتوسط للمعلمين وأن طولها بحدود مئة وستين سنتيمتراً، سمراء اللون سوداء الشعر، لكن أيهم أضاف:

الكل يقول أنها تشبهني بعض الشيء!

فقال صالح: أعوذ بالله ألهذه الدرجة بشعة عفواً... عفواً حلوة وقهقه الاثنان. جاء موعد النوم الساعة وصلت للثانية عشرة ليلاً، أطفأ صالح ضوء الغرفة واندس في سريره، وكان أيهم في السرير سلفاً. أحس صالح بحاجة أن يخلص مما لم يستطع الخلاص منه بالباص، فبدأ بهدوء شديد يمارس العادة السرية، كانت الغرفة مظلمة تماماً حتى أنك لا تستطيع أن ترى أصبع يدك من حلكة الظلام، كانت حركته بطيئة جداً لكن أنفاسه بدأت تتصاعد، دون أن يحس على نفسه فقال له أيهم:

صللوحة ماذا تفعل؟ صمت صالح. فكرر أيهم:

حبيبي ماذا تفعل بنفسك؟

فقال صالح: العادة السرية فقد هيجتني تلك الفتاة وبدأت أحس بألم بخصيتي. قال أيهم:

الله يقويك!

وبهذا السكون وبهذه العتمة، أحس صالح بيد ناعمة دخلت تحت لحافه وأخذت مكان يده، أراد أن يرفضها، شلت حركته، عقد لسانه، إنها يد خبيرة، يد جعلته أبلهَ لا يدري ماذا يفعل أو يتصرف ومّا مرت ثوان حتى كان صالح قد وصل لما يبحث عنه، لكن أيهم لم يرحمه واستمر بمداعبته وبجرأة أكثر حيث أنه خلع سرواله وبدأ يجلس في حضن صالح، ظلام دامس، عتمة ما بعدها عتمة، شياطين الأرض احتلت إرادة صالح، كبلته، طوعته، بدأ يحس بدفء جسد أيهم بدأ يجهز نفسه لفرض الذات، يعد العدة ليذيق هذا المدلل ما لم يذقه من قبل، يجب أن يجعله يتألم كما كان صالح يتألم وهو يمشي تحت المطر، والبرد يضفي اللون الأزرق على شفتيه، نعم إنها ساعة الانتقام من كل ظالم، إنها ساعة المتعة الجديدة التي لم يجربها من قبل، إنها ساعة النصر، إنها ساعة الذكورة، الرجولة، نعم أنا رجل، أنا فحل أنا ذكر، وللحظة تذكر صالح قطاً ينكح قطة في شهر شباط كيف كان يعضها من أذنها كي لا تهرب أو تتحرك، إنها ساعة العض، ساعة الطعن، ساعة النشوة، وانقض صالح عليه كذئب جائع فاقد الوعي فاقد العقل لا يرى بل يتحسس، وعندما استوت الأمور أمسك بأذن أيهم بأسنانه وبدأ الطعن فيه، وأيهم يعض على المخدة ويحاول أن يفعل شيئاً لكن صالح كان قد أطبق الخناق عليه.

يا سواد الليل لا تشهد على ذنبي، بل اشهد على رجولتي، على ذكورتي، فأنا أنتقم من كل الرموز، ليس من أجل متعتي لكن من أجل أن أضع علامة، علامة فارقة علامة لا يمحوها الدهر ولا يقدر على

نكرانها شيطان، نعم أنا فحل الفحول نعم وكان يزيد من الضغط وأيهم يتأوه ويزيد من عضه على المخدة وكأنما امرأة بكر تضع مولودها الأول، سقط صالح، سقط البطل هادئاً، وديعاً نهض من فوق أيهم أشعل سيجارة وفتح شباك الغرفة ووقف عارياً أمام النافذة، يضرب به الهواء الغربي البارد، توجه أيهم للحمامات خارج الغرفة، أحس صالح بشيء بين قدميه، نظر للأسفل، أشعل القداحة فإذا بها نقاط دم، أشعل ضوء الغرفة، نظر إلى السرير، بقعة كبيرة من الدم، أحضر محارم ومسح الدم من على الأرض وذهب إلى الحمام استحم بسرعة، وعاد قبل رجوع أيهم غير الشرشف الأبيض وقلب الفراش الذي تشرب بعض الدماء، وأعد فنجاني قهوة وجلس ينتظر عودة أيهم والهواء ما زال يلعب بالغرفة ودخان سيجارته يدور فوق رأسه، عاد أيهم، مصفراً، ممتعضاً، يضع يده على خلفيته، نظر إلى صالح وقال له:

أتعلم أنك حمار قطعي! لكن صالح ظل صامتاً بالظاهر، وبداخله كان يضحك، يضحك من كل قلبه فقد انتصر وجعل الذكر يتألم ويصرخ، بل وينزف. ثم كرر أيهم: والله لو كنت أعرف أنك بهذه الجحشنة ما كنت اقتربت منك، أشار صالح لأيهم بأن يأخذ القهوة والسيجارة وأشار له بأن يلتزم الصمت. لكن أيهم شرب شفة من القهوة وأشعل سيجارة وظل واقفاً. أشار له صالح أن يجلس، لكن أيهم رد عليه بغضب: لا أستطيع لا أستطيع. ووقف قرب النافذة ينظر إلى الأفق و وصالح ما زال جالساً يرقب خلفية أيهم سبحان الله حتى من الخلف كأنه أم الجينز. التفت أيهم وقال:

بتعرف حبيبي صحيح أنك حمار، وآلمتني، ومزقتني إلا أنك أمتعتني متعة رهيبة، متعة امتزجت مع الألم، إنه ألم المتعة. نهض صالح وانقض عليه ووضع يده على رقبته:

اسمع والله إذا رأيتك مرة أخرى لا تلم إلا نفسك، والله راح أرتكب بك جناية، سمعت؟ لن تنام ولن نطفئ الضوء وإذا صارت الساعة السادسة وفتحوا أبواب الوحدة السكنية تأخذ حقيبتك وتنقلع وقسماً عظماً إن رأيتك مرة ثانية ستندم طول عمرك، وتركه وعاد جلس.

أيهم: ضربني وبكى سبقني واشتكى!

صالح: قلت لك أن تخرس وأن تضع لسانك بفمك وتغلق عليه أحسن من أن أقوم وأقصه لك بهذا الليل وأجعل صراخك يصل لدوار الصاخور. صمت أيهم أحس بالخوف من الذكر الهائج، من الذكر المسيطر فالذكر قوام على الأنثى وهو كان قبل قليل أنثى، لكنه تذكر أن أمه أنثى ولكنها دائماً تصرخ بوجه أبيه حتى أن أباه يخشى أمه بكل ما تعني الكلمة بكل شيء فأمه هي الأنثى المسيطرة، وها هو يصبح مثل أبيه مغلوباً على أمره. ساد الصمت، البرد احتل الغرفة وبدأ أيهم يرتجف، أما صالح فما زال كعقاب يجلس جلسة واحدة دون أن يحرك إلا عينيه الحادتين.

أشار أيهم إلى صالح ليغلق النافذة إلا أن صالحاً رفض، أراد أن يحضر حراماً ويلتف به إلا أن صالحاً منعه، فبدأ أيهم يتمشى بالغرفة علّه يحس بالدفء وكان كلما أدار ظهره لصالح، أمعن صالح النظر ملياً بخلفيته. مرت نصف الساعة والجلاد مازال يجلس بنفس الوضعية، وأيهم أصابه التعب فاجبر نفسه وجلس على كرسي الدراسة وهو ينظر لصالح باسترحام فأمره صالح بإغلاق النافذة، أغلقها. أمره صالح بأن يعد لهم العشاء، فقام أيهم وأعد العشاء، وبعد العشاء غسل الصحون، ثم عاد صالح وطلب منه فنجان قهوة، فأعده أيهم وجلس على السرير.

كان صالح غارقاً بأفكاره: ماذا أفعل الآن، عندما شاهدت لوطياً بفيلم أجنبي شتمت وبصقت واحتقرت، والآن أنا أصبح لوطياً، أستغفر

الله كيـف حـصل هـذا والله لـست أدري، إنـه الـشيطان و أكيـد إنـه الشيطان، إنها ساعات الشيطان، لكنه هو الذي عرض علي نفسه يعني أنه هو الشيطان وأنا جعلته يتألم أي إني آلمت الشيطان، هـذا هـراء هـذا كلام فارغ، هو منحرف وأنت شبق ووافق شن طبقه، لا أنا لـست شـبقاً! نعم... إذاً من الشبق إن لم تكن أنت؟ نعـم أنـت شـبق والآن صـرت شـاذاً، نعم هذا مـا كـان ينقـصك. لا... لا أنـا لـست شـاذاً... أنـا لـست شـاذاً... لكن أحس ببركان بداخلي لا يجعلني أنام، أينما ذهبت أحس بالجنس بل أراه، في بيت أختي و مع رائد، حتـى أمـي، معقولـة يـا أمـي معقولـة، والله راح أجن، لكن يلا، الليلة صرت فيها آثم أكملها، وبكرى تب لربك!

أعجبته هذه الفكرة فانتقل إلى جوار أيهم على السرير وقال له:

حبيبي تشعر بالبرد، تعال سأدفئك!

فقـال أيهـم: والله جـرحتني الله يخليـك بلطـف والله أحـس بـألم شديد نهض صالح وأطفأ ضوء الغرفة واندس بسرير أيهم.

اسـتيقظ صـالح الـساعة الثامنـة والنـصف: الله يلعـن الـشيطان، المحاضـرة الأولى خلـص راحـت، ونحـن بقيـد المراجعـة للأمـور المهمـة، الامتحانات قريت. نهض أيهم، فرأى صـالحاً بوجه أيهم شيطاناً حقيقيـاً كالذي كان يسمع عنه، فبادره صالح ضاحكاً:

حبيبتي اعملي لي قهوة!

أيهم: حاضر تاج راسي، بس أرجع من الحمام.

صـالح: ضـعي علـى رأسـك غطـاء فأنـا شـرقي متعـصب وأخـاف أحد الملاعين يلاحقك في الحمامات! ضحك أيهم وقال لصالح: تقبرني.

كـان صـالح مـا زال غائبـاً عـن الـوعي، لم يفـق، لم يـشعر بـشيء، وكأن الجان قد لبسه، لم يؤنبه ضميره، لم يبك، حتى أنه لم يبصق على نفسه. يبـدو أنـه قد أدمـن الحـرام، لا... لا أجـاب صـالح ولكـن أريـد أن

أفرغ كل طاقتي ومن ثم أطرده وأتوب عن هذا الوسخ، والله أضحكني طول الليل وأنا أنكحه واستيقظ ضاحكاً يريد أن يعد لي قهوة والله لو أن أحداً غصبني على هذا الأمر لما كنت تركته يرى وجهي طول حياتي. والله غريبة، كان صالح يعيدها ويضحك:

ها أنا عريس، البارحة تم الفتح وقد شاهدت الدم بأم عيني، واليوم هو الصباحية، لن أذهب للكلية اليوم، سأتلذذ به طول اليوم، لكن اليوم سبت ومن المحتمل أن يأتي عبد الله، أعرف و وأثق تماماً أن عبد الله سيأتي اليوم، لأني أعرف حظي جيداً وما المشكلة نذهب لغرفة أيهم وندشنها أيضاً فأيهم يسكن لوحده أيضاً. عاد أيهم من الحمامات فتوجه لعند صالح وقبله وقال له: صباح الخير يا بطل. ضحك صالح وقال له: لعمري إنك نعم الزوجة، وتوجه إلى الحمامات! عاد صالح، القهوة جاهزة الأسرة مرتبة حتى أرض الغرفة ممسوحة. شيء حلو قال صالح وأحس برغبة من جديد بأيهم. فألقاه على السرير وأيهم يقول له: أنت... ألا تشبع!!

العاشرة صباحاً، الاثنان جاهزان للخروج، خرجا توجه أيهم للوحدة التاسعة وصالح للكلية، كان يمشي كديك أو كطاوس تكاد قدماه لا تلامسان الأرض: بلا أم حسين، بلا أم أحمد، بلا أم الجينز حتى، أيهم ويس والباقي خس، وكان يضحك، يضحك من كل قلبه، الرجال تخشاني، وليس أي رجل سيصبح مديراً للناحية، وضحك وفجأة توقف في مكانه، بحث على يمينه وجد ربع حائط جلس عليه، أشعل سيجارة، امتلأت عيناه دمعاً، رمى السيجارة من يده ووضع يديه على رأسه وبدأ يبكي:

سامحني يا رب، سامحني يا خالق الخلق، لا أريد أن أحرم من رؤية وجهك يوم القيامة، اغفر لي يا ربي، أنا عبدك الضعيف، أنا عبد

مغلوب على أمره سامحني يا رب، سامحني، وكان بكاؤه يتصاعد، أحس نفسه ضعيفاً، تائهاً ضائعاً، راحت السكرة وجاءت الفكرة:

يا ليت أني مت قبل هذه الجريمة. مسح دموعه، أشعل سيجارة قام يمشي باتجاه كليته مكسور الخاطر ذليل وهو يلعن أيهم والساعة التي قابل بها أيهم. دخل الكلية وكلما شاهد أحداً يعرفه حياه بتحية الإسلام، تمنى بلحظتها أن تكون لحيته طويلة، وأن يكون له ثوب قصير، بدأ يكره رائداً وحامداً وأم حسين وأم أحمد التي لم يرها، وهو يمشي فإذا بأميرة تمشي مع شخص أعرج مقبلة بنفس الممر، فنظر إليها نظرة اشمئزاز كاد الشرر يخرج من عينه، ثم بصق قاصداً جهتها وهو يقول في نفسه: والله أنت أحق بالقصاص من أي أحد يا أيتها الأفعى. وصل إلى باب القاعة كان حسان ورائد والحموي الحزين يقفون أمام القاعة.

صالح:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا إخوان، وعليكم السلام وكل عقب يا أخ العرب يا أخ المسلمين، إلا رائد فقال له: الله لا يسلم فيك لا جلد ولا عظم أين اختفيت يا أخ العرب.

صالح: رجاء احترم نفسك، واجعل كلامك على حجمك وإلا؟

رائد: وإلا... أعجبتني وإلا ...!

صالح: أرجوك، احفظ لسانك، وإلا ...!

رائد - واضعاً يده على جبين صالح ليعرف إن كان عنده حرارة، إلا أن صالح وبسرعة البرق أرجع يد رائد وبقوة شديدة و بقوة رجل، أو بالأحرى فحل. ذهل الشباب من هذا التصرف وأخذ حسان صالح بعيداً عن رائد الذي لم يفقه شيئاً مما حصل.

حسان: أي صلاح ماذا حصل لك ولِمَ تتصرف هكذا مع رائد؟

صالح: رائد جعلني أزني، جعلني أغضب ربي!

حسان: هل ضربك على يدك و هل أجبرك على الزنى؟

صالح: لا ... ولكنه هو سهّل الأمر لي حتى أنه دفع عني أجرة العاهرة.

حسان: يعني أنت ذهبت برجليك، وأنت دخلت عليها برجليك، وأنت زنيت، خلص تب لربك واستغفره وخفف من علاقتك مع رائد، ولا تذهب معه للبيت، وانتهى الموضوع، لا تكن فظاً أو غليظ القلب، تعالَ سأصلح بينك وبينه وأرجوك قبله فنحن إخوة، فرائد يحبك ويحترمك وقبل قليل كان يشكرك وأنت غائب عندما خلصته من أميرة، فقد كانت هنا مع زوجها، وقد همست بأذن رائد (أنها تتمنى أن تنجب صبي يشبهك فهي كانت معجبة بك أيضاً). حن صالح لهذا الكلام وتقدم من رائد وقبّلا بعضهما ورائد يشير لحسان على رأس صالح بأنه قد جن. بعد المحاضرة قال صالح لحسان:

خذني معك و لا أريد البقاء لوحدي، توجّها معاً إلى الصاخور، دخل صالح بيت أخته و كان يشتهي البكاء على ما قدمت يداه، لم يتناول طعام الغداء، بل طلب من أخته القرآن الكريم وجلس لأكثر من ساعتين وهو يقرأ القرآن ويبكي، ثم يصلي، ثم يبكي ومع كل أذان كان يتوجه إلى المسجد ليصلي الجماعة. كان في كل لحظة يخلد لنفسه يتذكر الليلة المشؤومة كما سماها، كان يغلق أذنيه بيديه وينادي: يا الله. بقي لديه أسبوع واحد وتبدأ العطلة قبل الامتحانات، البرد قارص و الأمطار لا تتوقف، وصالح لم يعد يذهب لغرفته بالمدينة الجامعية، بل أحضر كتبه لبيت أخته وقال: هو هذا الأسبوع، ثم أذهب وأدرس في بيت أهلي. لن أبقى وحيداً بعد اليوم، مر يومين وصالح يتأزم أكثر ويصبح متعصباً أكثر لدرجة أنه إذا صعد بباص أدار ظهره للناس كي لا يرى أو يلمس أحداً. كان يوم الثلاثاء وكان بالمقصف مع رائد وحسان وإذ بأيهم

يتجه نحوهم، سلم وجلس معهم، كان صالح متجهم الوجه: ها هو الشيطان من جديد.

أيهم: شغلت بالي عليك، تركت لك خمسين رسالة على باب غرفتك وكل الرسائل بقيت مكانها.

صالح: عندي مشاريع مشتركة مع حسان لذلك أنام ببيت أختي؛ لأنها تسكن قريبة من بيت حسان.

رائد: لم تعرفنا على الشاب.

صالح: كان معنا بالمدرسة الثانوية، وأخذ أيهم من يده وابتعد عن مجموعته، وقال لأيهم: ماذا تريد؟

أيهم: لا شيء فقط اشتقت إليك.

صالح: أنا مشغول أنا ذاهب الخميس للطبقة، أراك يوم الجمعة صباحاً على كورنيش البحيرة خلف ثانوية ميسلون الساعة السابعة صباحاً لا تنس. حسن قالها أيهم ورحل. عاد صالح متوتراً لأصحابه سألوه عن القصة فقال لهم: لا شيء يذكر يريد نقوداً وأنا لا أعرفه جيداً فوعدته أن أومن له المبلغ من زوج أختي!

القصاص

يوم الخميس ودع صالح أخته وداعاً حاراً وكان يردد سامحيني، وكذلك فعل مع حسان ورائد، وتوجه إلى مدينته، كان طول الطريق يستغفر ربه على ما فعل، وصل الطبقة و مر لعند الحلواني، واشترى الكنافة التي يحبها أبوه ودفع قيمتها هذه المرة، حتى إن الحلواني استغرب وقال له:

الوالد يحاسبني كل شهر، اترك مصروفك بجيبك قد تحتاجه!

فرد صالح: لم أعد أحتاج أي شيء بالدنيا ومشى.

دخل بيته قبّل أمه وبكى وقبّل والده وبكى، استغرب الأهل من بكائه فألحوا عليه بالسؤال فأجاب:

كنا سنتعرض لحادث سير مروع ونحن قادمون إلى الطبقة، لكن الله قد ستر، فأثناء تمايل الباص ظننت أني لن أراكم ثانية! حضنته أمه وبكت بكاء شديداً، أما والده فبدأ يحمد الله على السلامة ويدعو ربه بصرف البلاء عن أمة محمد.

استحم حماماً نظيفاً جداً حتى أنه أزال شعر إبطه وشعر عانته، فهو شهيد نعم سيكون شهيداً، هكذا قرر صالح، فهو يمر بتوبة نصوح جداً، فإذا مات الآن فهو شهيد. اندس في فراشه بعد أن صلّى العشاء والمغرب جمعاً وقصراً، وصلّى عدة ركعات نفلاً ونام، استيقظ مع أذان

الفجر، صلّى وقرأ القرآن، وفتح الباب على أمه وأبيه فشاهد والده قد نهض من الفراش ليصلي الفجر، واستيقظت أمه أيضاً.

خير صالح، أتحتاج شيئاً؟ قال له أبوه.

لا والله، أحببت أن أوقظكم لتصلوا الفجر.

جزاك الله خيراً يا بني.

وأنا ذاهب أتمشى قرب النهر اشتقت لنهر الفرات. حسن، قال الوالد فقال صالح:

سامحونا ... وخرج وعيناه ممتلئة بالدموع.

كانت الساعة اقتربت من السادسة وبينه وبين المكان الذي وعد به أيهم خمسة كيلو مترات تقريباً، كان دمعه قد توقف وهو يجد بالمشي عبر الوادي الذي يفصل بين مدينة الثورة والطبقة.

كان الجو بارداً جداً، والصبح لم يشرق بعد والمطر الذي هطل بالليل حول كل الطرق إلى طين ولكن صالحاً أمضى سنين من عمره يقطع الوادي ذهاباً وإياباً أثناء الدراسة، كان يمشي ويستغفر ربه، لم يكن يستطيع التخلص من عقدة الذنب هذه المرة:

(مارست العادة السرية؟ قبلها عقلي ومررها!

لامست فتاة بالباص؟ قبلها عقلي ومررها!

استلقيت فوق فتاة لثلاثين ثانية؟ قبلها عقلي ومررها!

زنيت بأم حسين؟ أيضاً قبلها عقلي ومررها بمضض، لكن أن ألوط بذكر مثلي؟ يا ويلي... يا ويلي) هذا الأمر لم يستطع عقل صالح أن يقبله، أن يمحوه من ذاكرته، أن يهمله، أبداً، هذه جريمة يعاقب عليها الله والناس، ويجب أن يعاقب نفسه، يجب أن يقيم حد الله عليه وعلى شريكه الآثم، وها هو أصبح نظيف البدن، نظيف القلب، والله يعلم ماذا في القلوب.

كان يمشي بسرعة فائقة جداً، واثق الخطوة، رافع الصدر والرأس مع العلم بأنه كان يعلم بأنه ذاهب لحتفه. إذا عزمتم فتوكلوا قالها صالح وأنا عزمت، فقوم لوط رفعوا إلى السماء وأسقطوا إلى الأرض، لكن أنا لا أستطيع أن آخذ أيهم ونصعد للسماء، ثم نسقط، لكن منحدر البحيرة عالٍ. فإن سقطنا من هناك، أكون قد نفَّذت حكم الله بي وبأيهم، نعم جبل البحيرة مرتفع كفاية، وسنسقط بنهر الفرات، الذي سيغسل ماءه رجسنا أيضاً، وهكذا أرتاح وأريح؛ لأني بكل مرة أنزل خطوة للأسفل، ممكن في المرة القادمة أن أفكر بقاصر نعم هذا وارد؛ لأني سمحت لنفسي أن تقودني، ولمتعتي بتوجيهي، ولشهوتي بالتحكم بي، نعم أن أستأهل هذا العقاب، والناس سيترحمون علي وسيقولون بأن قدمه زلت وأبقى كبيراً بأعينهم، أحسن من أن أنفضح ذات يوم فأسوِّد وجه أبي ويسودُ وجهي للأبد.

لكن... هيه ألم تفكر بأمك؟

ليست أول أم تفقد شابا!

هل فكرت بعذابها للحظة فقط؟

نعم ستبكي وتبكي... و تبكي وبعدها ستبدأ بنسياني.

يا غبي الأم لا تنس جنيناً أجهضته بملء إرادتها، فكيف تنسى شاباً وسيماً، طويلاً قوياً اسمه صالح، ألا تذكر أم محمد الذي استشهد ابنها في لبنان عام 1982، منذ ثلاث سنوات، إلى الآن تبكي وستبكي طول العمر، يا ولد اعقل وارجع للبيت وابعد عن أيهم واحفظ توبتك هكذا يكون القصاص، فلو أن الله عاقبنا على أخطائنا بالدنيا لكنت رأيت العجب لكن الله غفور رحيم، ارجع يا ولد وأفطر مع أمك وأبيك، واذهب مع والدك لصلاة الجمعة، ودعهم يفرحون بك فالذي ستفعله ليس قصاصاً، بل انتحاراً والانتحار حرام. تباطأت

خطوات صالح، وبدأ يمشي بهدوء تام حتى كاد يقف، ولكنه تابع المشي و أصر أن يكمل المشوار، وأن ينفّذ ما عقد العزم عليه وجدّ الخُطا من جديد:

سأمسكه من رقبته وأجعله ينطق الشهادة، ثم سأقفز باتجاه البحيرة وهو بيدي، فنسقط معاً، ونكون قد نلنا عقابنا وتنتهي القصة.

وصل إلى المكان المحدد للموعد، كانت الساعة بحدود السادسة وخمسين دقيقة، لم يكن أيهم موجوداً وقف صالح على حافة المنحدر، بعد أن تجاوز السياج الواقي والفاصل بين الحديقة وبين منحدر البحيرة، وجد صخرة فيها بروز فقرر أن تكون هي المقصلة، أو المشنقة، أو مسرح القصاص. أشعل سيجارة ونظر إلى بحيرة الأسد، كان ماؤها عذباً فراتاً، وتذكر بيتين من الشعر تصف عذوبة الفرات، وقال للفرات: كانوا يقدمون لك القرابين، واليوم سيكون عندك قرابين لكن ليس لك، بل لله عز وجل. كان المنحدر مكوناً من صخور كلسية هشة، وكان المطر قد داعبها طول الليل، فأصبحت أكثر هشاشة وأكثر طراوة، وكان مستوى الماء مرتفعاً في البحيرة، فلم يكن هناك فارق بين الصخور السفلية والماء، بل كانت كلها مغمورة بالماء، كان منظر البحيرة مغرياً وعاد صالح لذكرياته عندما كان يخالف تعليمات أبيه ويسبح بالبحيرة التي ابتلعت كثيراً من السباحين الماهرين، ولكنها لم تستطع ابتلاع صالح.

صالح... صالح، التفت صالح فوجد أيهم ومعه فتاة تشبهه، عرفها مباشرة أنها أخته، احتار صالح ماذا يفعل، لمَ أحضرها معه، لِمَ لم يأت بمفرده، كيف سأتصرف الآن، كيف سأنفّذ به الحكم؟

ومن أنت لتنفّذ الأحكام؟ كيف تكون أنت المجرم وأنت القاضي والجلاد بنفس الوقت؟

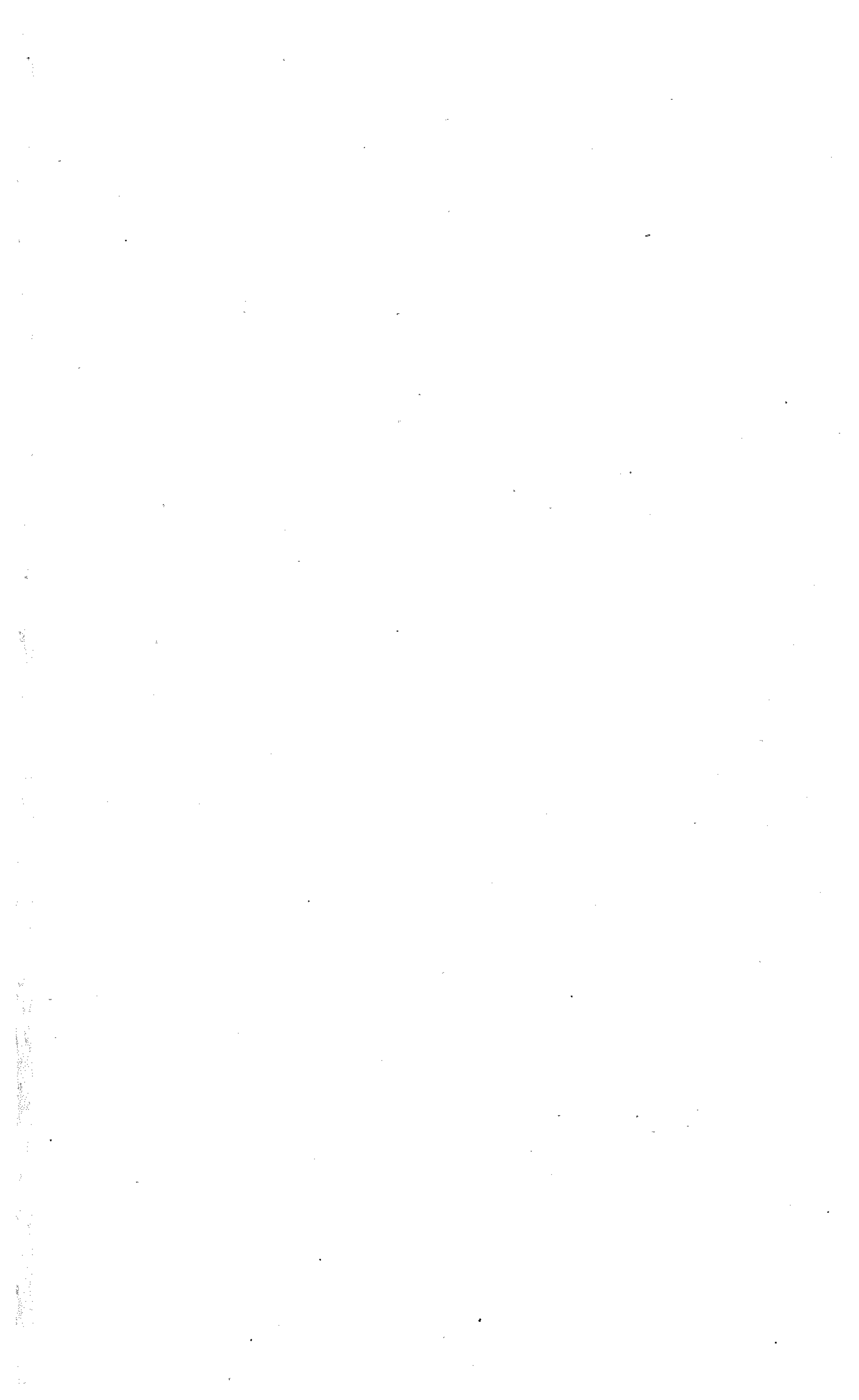
بقيت الفتاة واقفة على الحافة العلوية عند السياج، وجاء أيهم يضحك باتجاه صالح.

أمسكه صالح من رقبته وقال له: لمَ أحضرتها معك؟

أيهم: جاءت رغماً عني، عرفت أني سأقابلك، فأصرت على المجيء حتى أنها أحضرت معها قهوة دون سكر، قلت لها أنك تشربها دون سكر.

صالح وهو ينظر إلى الأعلى ويمعن النظر بالصبية السمراء ذات القوام الطويل وينظر إلى الجينز الضيق وإلى شعرها المتطاير مع هواء الصباح ولفاحة الصوف التي تدلّى طرف منها بين نهديها.

وضع يده على كتف أيهم وصعدا إلى الحافة العلوية قرب الجدار حيث سكبت أخت أيهم القهوة التي فاحت ريحتها موحية بالدفء والصبح الجميل. سلّم عليها صالح ولم ينس أن يشد على يدها لتزداد إعجاباً به على مبدأ فلسفة القوة. ناولته فنجان القهوة وبصوت ناعم همست: تفضل خذ الفنجان وهو يلمس أطراف أصابعها وأشعل سيجارة وقال لها: صباحك سكر... والتفت نحو النهر... وابتسم...





كان صالح يمعن النظر في الصبية السمراء، ذات القوام الطويل، يتأمل الجينز الضيق، وشعرها المتطاير وهواء الصباح، والشال الصوفي الذي تدلى طرف منه بين نهديها.

وضع يده على كتف أيهم وصعدا إلى الحافة العلوية قرب الجدار حيث سكبت أخت أيهم القهوة التي فاحت رائحتها، موحية بالدفء والصبح الجميل. صافحها ولم ينس أن يشد على يديها لتزداد إعجابا به. ناولته فنجان القهوة، وبصوت ناعم همست: تفضل، أخذ الفنجان وتعمد ان يلمس أطراف أصابعها، وأشعل سيجارة وقال لها: صباحك سكر.. والتفت نحو النهر.. وابتسم..



ISBN 978-9933-301-22-1